محمَّد قطبْ

# صَانعُ البَهْجَة

قصص قصيرة

الكتاب:صانع البهجة ( قصص قصيرة )

الكاتب:محمد قطب

الطبعة: **2017**

الناشر: وكالة الصحافة العربية ( ناشرون)




5 ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم - الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 - 35867576 - 35867575

فاكس : 35878373

**http://www.apatop.comE-mail: news@apatop.com**



دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

قطب، محمد

صانع البهجة .. قصص قصيرة / محمد قطب

– الجيزة –وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى:**0–297– 446– 977– 978**

أ – العنوانرقم الإيداع :**5480 / 2017**

# صانع البهجة

## قصص قصيرة





## حَنيفة لا تضرب الوَدع

.. وقف يوسف بسمْته الغريب يبكي في نهنهه ترجُّه، رمى "طاقيته" التي تشبه اللَّبدة وداسها بقدمه، وبدا شعره مهوّشًا ونافرًا، تساءل في صوت مرتجف.

– حنفية لا تضرب الود ع !!

لطم خدَّيه بكفَّيه حتى أشفق الناس عليه مع أنهم يعلمون أنه يفعل ذلك كثيرًا حين يداهمه أمرٌ ما، فلم يتوقفوا طويلًا حتى وهو يجأر بالصراخ في مدخل الشارع، أمام مقام الشيخ.

– أيعقل يا أهل الحارة ؟

وانكفأ على نفْسه فوق حجر خشن وعيناه تسحَّان دمعًا سخينًا، وبدا صوته يتوالى كالرَّجيع

– من يسْعدنا .. بعدها .. منْ .. منْ .. ومنْ

***

انفتحت الأبواب، ومرقت الأجساد، ووقفت الحارة على ساق، ورددت الألسنة .. خطف محمود .. حنيفة! وخفقت القلوب .. خطف حبة القلب فتقاربْت الجدران، والتقت الدروب على سكة واحدة .. ولسان يردد:

– خَطَفها ومَرَق.

ثار الغبار وطاف بالرءوس وصنع غيمةً رمادية دخلت إلى العيون .. دَعَكتْ امرأة عينيها، ونفختْ في ذيل شالها وكمَّدت به العين، أرهفت سمعها فوصلها صوتٌ حزين ومعْتم، أدارت وجهها .. كان يمسك بشاربه، ويفتله في ذهول.

– كانت تُمتعنا،

مدت يدها إلى صدرها وأحكمته، ونشجت في صخب.

– اشْقتْنا .. أشقاها الله ..

لبدتْ المرأة في كتف عجوز تولول، وأدهشتها ما تفعله بشفتيها حتى كادتا تدميان، باحتْ لها براحتها، فزوجها الهرم كان يصر على الفعل .. وهى التي فارقتْها رغبتها وتشقق جلدها .. كانت تسعد حين يغفل عنها .. وتُغمض العين.

– كانت تريحنا!

كاد عقلها يتطاير وهى تسمع الصوت خافتًا ثم يعلو – موقعًا – كالندب.د

– خطفْها ومرَق .. خطفْها ومرَق

عند حنْية المقام وقف شيخ الخفر، رفع بندقيته عاليًا فران صمتٌ هادئ سرعان ما تطاير في وجهه صياحًا، اتَّكأ على بندقيته وهو يمسح الوجوه في عجب.

– الخائنة ؟ كم حمْيناها!

***

.. وقفت على تبَّة من الحصى والحجارة، ورأته منكسرًا، نائيًا بنفسه، والدمع لايزال عالقًا بأهدابه، مالت بوجهها إلى يوسف، أهملها وحدّق في الفراغ.

أخذها قدماها فتداخلت مع النسوة عند مدخل الحارة، كبَّت نظرها عليهن وقالتْ في تدلُّل:

– أنا خليفتها ..

قلن باستهجان: – أم السعد!

– مثْلها .. في لعبة الودع

حدَّقن فيها: – ليس مثلها .. امرأة تضرب الودع.

ضحكتْ، ثم زامتْ وتداخلت فيهن

.. صاح رجل في هدُّج ..

– هو أولى .. اختارتْ يا خلق

وتناهى إليهم صوت يوسف كالولولة

– خطفها ومَرق!.

وزاحم فلّاحُ العمدة الرجال عند الجانب الآخر من المقام ..

– لا يأخذها أحد لنفسه

وظل شيخ الخفر يردّد:

– كنا نحميك، نحن فقط نحميك

فولتْ أم السعد رأسها .. وصمتت ..

وراح الصغار يرددون في صخب محبب:

– احمو البُنية

برز – كضوء بارق – طفل راح يتراطض وينشد في إمالة موقعة

– احمو البنية !.

التقت الرءوس، وتمايلتْ، وانخرستْ الألسنة في الأفواه ..

وظل صياح الصغار يتعالى

– احمو البنية

وتدافعوا يهللون حين رأوه عند حافة القناة وهو يردف حنيفة على بغلته .. ورفعوا أكفهم ضاحكين .. ابتسم لهم وهو ينطلق بعيدًا.

***

انزوى في رُكن ناءٍ، وجلس على حصيرة متآكلة، تنفلت حبات المسبحة من بين أصابعه في رنات متلاحقة تخطف السكون، تدلّى فكُّه السفلى حتى كاد لسانه يتدلى، واستند إلى الحائط، سهمت عيناه فابْيضَّتا، ونادى في وهن:

– حنيفة ..

ما الذي ضرب الجسد فأعجزه ؟ ..

من أين جاءه الشرخ الذي قسمه فأنهكه ؟!

لو تعود الأيام !

تأخرتُ حتى اخترت، ادخرتُ مائي حتى وجدتك، فأخصبتكِ، كان ودعُك فتْنتَكِ، وكنتِ فتْنتي، حين كشفتُ الستر وبانت الروح شفافة تماستْ حواف الأشجار وانساب الماء على وقع خلخالك .. وارتاحت القلوب ..

لكنني، سقط، وانشرخت.

ونادى واهنًا .. حنيفة.

لم يُطل وجهها فيهرب الألم ..

حاول النهوض فمال على شقه الأيمن واتكأ .. دارت ذراعاه وساقاه وثقل البدن فهوى ..

علا صوته مستعطفًا

– حنيفة .. ردّي عليّ.

أه منك .. كنت تتلهفين على كلمة مني .. تبتهجين لرؤيتي وكنت تحتالين كي أبقى، وحين سلختُك من ودعك، سال دمك، وغشى الناس كرْبٌ مفاجئ .. عرفتُك بذرة وعرفوك أرضًا .. وفرشًا، وتغاضيتُ حين رأيتك امتدادًا لي ..

كيف أهون عليك وتهملينني!

يوم علوتُ بغلتي، وقبضت على عصاي، وتدثرت بالعباءة، خرجت أبحث عن العناكب .. حذرتني من ظلم مدجَّج بالهوى، وغيم من الحزن ينعقد .. وظللت هائمة الروح حتى رجعتُ، قدمتُ صيدي ألسنة مقطوعة، وقرنفلة مشبوبة وضعتُها في عروة قلبكِ كي تحيا بدمكِ ..

فلماذا لا تردين .. وتبعدين عينيك كأنني لا أستحق !!.

***

تروح وتجئ، تدلف وتخرج، وعيناها عليه ..

وملالة تتسرب إلى روحها .. زاحمها شعور بالمهانة إلى أنْ تزوجت .. الحارة تعترض، والنساء تولولن، والرجال يصرخون .. ضاربةُ الودع للجميع .. لقد هنتُ في عيونهم.

.. كفكفتْ فرحتها وهى تراه مفرودًا أمامها كغصن ريَّان وشفتاه تتفرجان عن همسة ممدودة ..

– حنيفة !

دفست فرحتها في عبَّها

– محمود !

ومدّ كفه، فرد خصلة من شعرها

– ضقتُ بالحارة

نثرت شعرها فلاح الوجه قمرًا.

– وأنا ..

تسارع النبض. وانعطفت موجة فجرية فارتجف

– تتزوجيني !

وخفق القلب حتى كاد يفلت منها، وتلألأت نجوم سماوية وأدلت الأشجار بفروعها، وصنعت خميلة، وفرش الهواء مخْملة ..

- والودع !
- نحطمه

رنت إليه في زهو مندهش وقالت:

- الودع حياة.

قبض على يدها، فانسال في شرايينها وهج مضيء ..

- معًا سنحياها

***

- ردّي عليّ

خرجت إليه رامحة .. وصلته كفرسة عفية .. وانكبت عليه، لملمت أعضاءه، فاستوى، أسندته إلى الجدار، ودَّ لو غرق في عينيها، وتكفَّن، وتطهَّر بمائها الدافئ ..

***

وقف أمامها كأنه يطاول السماء، حجبت هامتُه خط الأفق وصهْد الشمس، بدتْ في عينيه مهرةً عفيَّة، وشجرة لبلاب وارفة، ناوشتْه في بسْمة مخادعة.

- قدَّامك سكة سفر

تعْلم أنه يرمُقها رانيًا، تُبعد رأسها عنه وتمد أصابعها وتجوس في حبَّات الودع.

– لا تُبعدي عينيْك

قبض على رعشتها وأمال عنقه، أسقطتْ الشمس نورها وغمرت الودع.

.. يراه يفيض من داخلها ويغمرها .. كأنه قمر يوزع ضوءه وينثره على "أرجائها" .. والوهج الدافئ يطل من عينيها ويسيل حتى يحيل الوجه حمرةً تطفر صهْدًا، أيكون داخلها مليئًا بنور مدَّخر، وودعُها لم يطمسْ نورها .!

– انثري كومة الرمل .. واتبعيني.
– ألا ترى ودعك ..
– قرأت ودعي ..

بدا الوهج يفيض ويحرق، وشفتاها تعصيانها .. ونطقت

– امرأة تطاردك
– هي .. أنت

هفَّت بيدها حمرةَ الوجه .. وصهده، ورمت بشالها على رأسها

– الودع يقول ..
– يخدعك الودع ..

.. أبدًا لا تنخدع بكلام العين وسحر الوجوه، لم تر فيهم غير الطمع والرغبة .. كشف الودع الخبايا .. أخذتْها العقول، ووسدتْها الفراش .. وغسلتها بماء الورد.

وها هو .. نظرته تختلف، ورقّة الجفن توحي بولع حقيقي .. أيكون صادقًا معها، أم أنه يختبر ؟ أينسى ما يقوله البشر عن ضاربة الودع ؟

وغشيتْها حمرة، مشوبة بقلق مستكن، فأسرعت قائلة كأنها تخاف أن يعصيها لسانها.

– تتمناك.

وانفتحت طاقة في قبة السماء، أطلَّ منها وجُه جميل المحيَّا يتمطي جوادًا .. ويلّوح بيده ضاحكًا .. نترتْ جسدها كله، شاخصة العينين .. وراحتْ تلّوح له ..

***

– حنيفة ..

توقفت وحروفها تترامى على مسمعها كأنين ساقية مكتوم .. في ليل بهيمٍ مُمتد، وتمتمت في خفوت وقلبها يُوجعها عليه ..

– ألا تريح نفسك يا يوسف ..

جاءها الصوت معْدنيًا وباردًا كأنه خارج لتوَّه من صقيع الشتاء

- لست يوسف .. العبيط

داهمها فتجمدت، كادت أطرافها تخدعها فتهوي .. وانفتحت شفتاها لتصرخ فانطبقتا، وانكتمت.

- شيخ الخفر !

رقدْت يده الضخمة على الكتف وقال في غضبه مارقة

- حميتك .. كثيرًا .. ودافعت عنك.

مدَّت يدها – كي تبعد الكف الخشنة الضخمة، فازداد ضغْطًا ..أخذها رجفة طالت، وتوسلتْ ..

- اعمل معروفْ.

واقترب، فاح فمه برائحة شراب البوظة العطن .. وضغطها بقوة

- تعالى ..

كادت تتلاشي، ورأته متزويًا في ركنه النائي .. ينادي .. حنيفة .. فبسطت يدها لتحجزه ..

- ليلة واحدة، ولك ما تحبين
- زوجي .. يحتاجني
- اتركيه
- .. أنا متزوجة ..

– أصابه الداء

– سيركب بغلته مرة أخرى

.. لم يكن يدرك أن الأمر سيسوء إلى هذه الدرجة .. كان فقط يتمنى أن يصاب بعاهة خفيفة .. كانت أمنيته أن تنفق بغلته و"تروح" فيها، كي يكف عن الظهور في خيلاء، وهو يرخي اللجام وينطلق .. لكنه حين أطلق الرصاص، رمحتّ البغلة .. وسقطت بقوة اندفاعها في فجوة عميقة على جرف القناة .. وكانت السقطة ..

ضحك شامتًا : – لا أظن

واتتها القوة، كأنما الودع لبَّى خوفها، فأكسبها قوةً غائبة وصاحت في قوة أذهلته

– سيركبها .. وسيطوي الأفق .. ويعلوكم جميعًا

– لا تبيعي الحيّ بميِّت.

– لم يمتْ .. هو كما تعرفه ..

وانتفض جسدها كأن جنيًا تلبسه وهو يردد على مسامعها

– الليلة فقط.

وامتد لسان اللهب من عينيها حتى كاد يحرقه وكورتْ شفتيها وبصقت في وجهه .. ورمحت بعيدًا ..

.. وضحك شامتًا .. وبرم شاربه وعيناه ذاهلتان .. خايله الموقف من جديد .. وهو يكمن له، ظلَّ يدبِّر الأمر بعد أن تزوج منها، وأسكنها بيتًا يطل على البراح، وخلفه قناة يمشي الماء فيها هونًا .. وزرع لها فرع ليمون وشجرة توت .. وقدَّم لها حبل بقرة صفراء .. كان الحقد يأكله، وهو منْ فرض الحماية عليها واحتوى خِصبها .. قرر أن يفعل .. وفعل ..

***

دقتْ الباب بقوة .. فاهتزت أركانه.

رمت بنفسها في حضن أم السعد وقالت :

– أنه يطاردني .. ابعديه

حنتْ ومالتْ، ومسكت وجهها بين كفَّيها .. وتملَّتْ، وأدركت أنها نالت البيعة، وجاءها الودع بغتة ..

.. راحت تطوف بالودع، تتلاعب بالقلوب، تكشف الأسرار .. والودع بين أصابعها كتاب مفتوح على مخزنها الممتلئ ..

.. وقنصتْه ..

كان يبدو في بلاهة الدراويش، طلَّق الدنيا منذ أعلن الخبر .. وراح يردد في الأنحاء .. حنيفة الودع .. أشارت إليه وصلصلت بالودع .. جاءها رامحًا،وارتكز أمامها ..

- يوسف – ارم البياض

وضع يده في جوفه، ومسك قلبه وألقى به في أناة على منديل الرمل، ضحكت ضحكة فاحشة.

- لم تبق شيئًا لحنيفة

عصفت به الاسم فجثا وتَدلَّى، خشيت أن يدخل سراديبه وينطلق يدور في الأزقة، والأطراف وينادي .. خطفها ومرق ..

وأسعفتْها حيلُها فرددتْ .. في ترنيمة موقعة

- حنيفة، القلب وما حوى

وشملته رجفة فأغدقت عينها عليه .. وترنمت .. حنيفة

نهض واقفًا كجدار صلْب وهو يغالب دمعه

- عيني وما حوتْ

خبطت صدرها في صكة .. وأجهشتْ

- يطاردها .. شيخ الخفر.

اجتاحه شلال هادر، فاستدار، وانطلق معه صوت غاضب ومحموم

- وجب "الأدب".

***

حنيفة

أضرم الصوت في قلبها نارًا

هو الذي اختطفها، وأخذها وطاف بها البلاد، والوهاد، تخطى الحدود وانطلق.

- صمتك يخيفني.

انفتحت مسامها وأقبلت عليه، وشدَّته إلى صدرها، ومسدت رأسه

- عجزي .. يسجنك

كأن صوته يعيد إلى روحها هذا الوهج الذي كاد ينطفيء، فنفضت عنه ثوبه، وهى تردد – ستعود كما كنت فارسي الذي اختطفني، أتت بالمياه الدافئة، وهى تقاوم ضعفها وتهمس له

- سترديفني وراءك وتنطلق

ينساب الماء دافئًا، فيدفئه، وعيناه عليها، يطل منهما ألم وحزن وهى توشوشه كأنما تستدعي ودعًا يشعل الأمل.

- تطوف بي البلاد البعيدة، وتأخذني إلى المآذن والقباب، والسكك الجميلة ..

دفستْ أصابعها في صدره وهزته باسمة

- تنتظرك بغلتك

وراح بدنه يهتز – حتى خافت أن يكون أصيب بمكروه ..

أوقدت النار، ودثرته بدفئها.

ابتهلت إلى الله أن يهبها القدرة .. ويلهمها الصبر ..

أرخت شعرها، ومشطته، فردت جسدها ومدت ذراعيها وهمست في دفء ..

كأني أراك تمضي بي إلى شاطئ القناة وتنزل بي إلى البراح – وتُيمِّم ناحية الجنوب، وأنت تحثني، وأنا وراءك كفرسة عفية .. والموج بين الشاطئين يصطفق ويردد .. حنيفة، وأنا أغضي حياءً، من نفسي وأنا أرى حبل الماء يعلو، يصافحني، يلفني ويغمرني، فأهمس لنفسي وأربت على قلبي .. حنيفة .. والماء يردد معي .. حنيفة ..

## وِرْدات .. التِّرتر الأحمر

**-1-**

غالبها الخجل فأدارت رأسها وأسبغْت شالها، زمتْ شفتيها وهى تواجه الناس، والطرق، والبنايات، وعيال الشوارع، خافتْ من العيون أن تصطادها وتمنت لو يخف قليلًا هذا الحياء الذي لازمها منذ حادث الخلاء.

رأت السؤال يتبدى على الوجوه، ويطل من العيون، ويقف عند التواءات الرءوس، فارتجفت، وانشغل الحياء بها فصنع موجة غمرتها، وبلَّلت جسدها، وأدركت أن حاجزًا يفصلها عن الآخرين، وأن الغربة طالتها وهى معهم.

وآلمها أن ترى النسوة يضحكن لها، ويربتن على أعطافها ثم يتوارين سراعًا كأن بها مسًا، وتراه يشاغل العقول هذا الذي شاع عن طلاقها، ويقف على أطراف اللسان، ويسيل كالهمس فيوجعها، ويربكها وكأنها الجانية.

مدَّت يدها وتحسست شعرها وهوّمتْ، والضفيرتان تتأرجحان في عفوية مدَّربة، وتشيان بصحة جسد ثري، والشفتان تترقرقان ببسمة تحاكي انبلاج الشمس، والمنديل الزهري تخالسه شعيرات لامعة، ومعطرة، وحاجبان يتجاوبان مع كل طلّة، أو لمحة.

.. كان الفرح يقفز من عينيها ويصنع حولها غلالة من البهجة.

.. لكن الدنيا آظلمتْ.

وصدئت القلوب وأعتمت ..

وشعرت بحزن يداهمها ويدب على جسدها، فنترت يدها في وجه الفضاء، والوجوه .. ودخلت.

-2-

لاصق الأفندي باب الدكان ونقر بإصبعه على طاولة المدخل، وطلب علبة سجائر "بلومنت"، حطت عيناه – وهى تنهض في تثاقل – على الصدر والخصر وزمَّة الجسد في الثوب الواسع، تلكأ وهو يفض غلاف العلبة فأعطته الكبريت، راح يرنو إليها وهو يُرسل الدخان موصولًا .. ويبتسم، أسرعت وفتحت الدفتر الأسود الكالح وطالبته أن يسجِّل ما أخذ، أوجعتها النظرة المتسللة فأحكمت الصدر وقبضت على فتحته، أغلقت الدفتر وانسحبتْ إلى الداخل .. زاحمه قلق مباغت فرمى بعلبة الكبريت ومضى.

-3-

زاحمته والليل يساكنه، كان غضبها حلوًا، وهو يخترق حسه ويثير شوقه، لا يذكر أنه قال شيئًا أغضبها، لم تفته رعشة الوجه وهمس مغيظًا:، مَنْ لا يسْعد بالعيون الرانية ! وجاءته على صورتها .. الوجه الأبيض، والعين

الخضراء والجسد البازغ، وباغته هاجس أدهشه: كيف يفرط زوج في امرأة مثلها !؟.

وأعاده طرقٌ على الباب إلى وعيه.

أيكون قال شيئًا أغضبها ؟.

وارب الباب في حذر فمرقتّ منه وسبقتْه، كتم دهشته وانتظر، وتحررتْ في جلستها فاقترب، أتكون أخبرتها بشيء ؟

هل ادَّعت عليه أمرًا أتى بها ؟ ما الذي جاء بها ليلًا كقطة مارقة ؟.

شدت طرف ثوبها وقالت:

- تعرف يوسف ابني ؟..

ظلَّ على صمته، وذهولٌ يحل به.

- يحتاج إلى درس خصوصي

ورنت إليهفي خلسة ووجهها يبتهج.

- الولد مستواه ضعيف

أزاحت شالها، وفكت عقدة المنديل، وكومتّه في يدها، مسحت به رقبتها وقالت مُوجعة.

- موت المرحوم أثَّر فيه.

تحركت في قعدتها فلاح الساق مكتنزًا، فابتسم، وابتسمت.

لم يسبق له أن اتفق على درْس في منتصف الليل، طمأن نفسه واستراح، فالمرأة أتت لشيء آخر.

– اعذرني .. الوقت متأخر

وفردت ذراعها، وطوحت بشالها الأسمر الخفيف.

– الدكان يأخذ عمري كله ..

تحرك في اتجاه المطبخ فمنعته بهزة رأس أبانت شعْرًا مُحنًّى.

– التركة ثقيلة يالأفندي ..

– والخيبة تمت

زمَّ جبهته فبدا مغضَّنًا، ومخيفًا.

– البنت .. "اطلّقت"

وراح الحزن يعصر وجهها ويحتقن، وبدت كأنما ستبكي، فربت على كتفها، تهدَّج صوتها، وغامت عيناها .. ثم زامتّ، كأن أحدًا يدفعها .. فنهضت، وقبل أن تمضي .. همس في رقة مقصودة

– لا تحْملي همًا.

## -4-

الصباح ندّى، والترتر الأحمر فوق الجبين وردات حمراء مقطوفة .. والعينان فراشتان تحوّمان، وترفرفان .. ووقف .. كأنه مركوز في الأرض، قيّدته البسمة الرائقة، والوردة الزاهية وهمس متعجبًا، أتكون هى ؟ وهذا الوجه وجهها ؟ .. أين الغضب ؟ وكيف ذهبتْ دكنة الوجه ؟ ورقدت عيناه عليها، وتمتم في صوت ذاهل .. كيف يفرط رجل في امرأة مثلها ؟، وفاض حسُّه ببريق الأمس، لكنها أدارت وجهها وصمتت.

مال إلى المدخل وأطل.

هز معصمه فبرقت ساعه.

لوى عنقه فلمحتْه الأم ونادت عليه، أهملها ومضى، حدقتّ فيه وابتسمت، لاحت أمامها ظلال تتحرك، وأطياف تتمدد، وخيَّل إليها أن صهيل الأمس يتردد، وأنه لا يزال عالقًا به، ورمقت البنت مبتهجةً .. والبنت تندهش، من وجه الأم الفرح، وما رأته إلا كالحًا ومزمومًا وغاضبًا.

## -5-

ارتفقت طاولة المدخل، وعيناها تُحوّمان وترنوان إلى طائر يرفرف من بعيد، ثم يهوي نحو باب مُوصد لا ينفتح .. الجوارح تترصَّدني والألسنة تلوك سمعتي .. مَنْ يأتي فيأخذني، ويسترني .. هل أصرخ .. في وجوههم أن يكفوا ويبتعدوا ؟

وخرجت صرخة حادة كآهة .. فارتجفت، وتنبهت.

كان يقف أمامها بشعره الملبَّد وشاربه المتنافر، وصدره العاري والعصا الخيزران تتقافز بين أصابعه، أسرعت فسدت المدخل، نحّاها في غلظة .. ودخل، شعرت بمهانة وهو يجلس بجوارها.

وطال الحديث بينهما وباح الصوت بعتاب وزجرْ، خذلتْها وهى تدسُّ في يده قبضتها المكوّمة، ومشى الغضب يدب على جسدها، وعينها تفرز لومًا هائلًا .. هذه المرأة لا تراعي سنها، ولا تعمل حسابًا لابنتها المطلقة .. ولا تسمع منها إلا اللوم .. والتأنيب .. والكلام "السايب" .. العاقلة من تدبر أمورها وتداريها، وتسكت عن الأمر وإن رأته بعينها .. وتذكِّرها بأن الرجال "كالهم ع القلب"، وأنها جميلة ومرغوبة .. وعليها أن تختار، ثم تصوب عينها وتقتنص .. وأنا المطلقة، اكتشفني الرجال فتوددوا إليّ .. خالية كالبراح الذي لا مالك له، تترامى عيونهم، وأرقب نفسي في وجوههم .. وألوذ بصمت كدرقة تتكسر عليها السهام ..

أدارت رأسها فالتفتت الوجوه، لملمت نفسها، وصفقت الطاولة .. وولَّتْ.

كانت تشعر بأن قلبها يتسرب منها، وأن وجْعًا له دبيب كدبيب النمل يغزوها، ويأكل روحها ..

وحبست نفسها، ولزمت البيت، وانشغلت برعاية طيورها ..

صادها الحمام فحدقت فيه وأمعنت، ينقر الأرض، ويلقط الحب ويطير، يحط على السور المدبب، أو فرع الشجرة المهملة، شدها هفهفة الجناح والهديل الذي يحاكي خفقة القلب، كاد داخلها يذوب وينبض هى ترى الأنثى تُفغر فمها في رجرجة ريش ناعم وتتلقَّى بحَّة الذكر، يغيب نفسُها، وتتنهّد في عمق، فيلوي الحمام أعناقه، ويفرش ريشه الهادل ويطير فرحًا إلى القفص المعلق بالسقف .. ويدخل فيه.

وكما طار الحمام طار.

زينتْه، وفرضته، ولم تأبه برفضي، فاستسلمتُ، وأخذها معه إلى الخلاء .. وغرس في قلبي شوكة مسمومة.

وصاح الديك فانتبهتْ، أدار رأسه بعرفه الأحمر الداكن، وابيضَّت عيناه، ثم خمش الأرض، ووقف مزهوًا بين الدجاج، هرتْه فاشرأبت الرءوس وراحت تدور حوله.

**-6-**

لا تذكر أنها ابتسمت، أو أن خجلًا علا وجهها فاحمر، أو أن رعشة حركتها فتأرجحت وردات الترتر الأحمر، فلم هذا البريق اللاهث في العين ؟

كانت عيناه لا تكفان عن العبث وهو يراجع الدرس مع أخيها، هربت إلى الداخل لتعد الشاي، ارتبكت فتناثر الشاي .. وانفرطت عبوة

السكر، ارتخت الأصابع وعجزت عن قبض الأشياء، ما الذي دهاها وأرجف قلبها، وحرث حسَّها ؟..

خطفت نظرة إلى وجهها ..

سوتْ منديلها الزهري، وقرصتْ خدها، ومصَّت شفتيها ثم أحكمت فتحة الصدر، واستدارت .. وفوجئت به، خطفها الرعب ويده تحيط بها، وطاشت أنفاس ساخنة على وجه بارد كالثلج، فار الشاي، وانطفأ الموقد وارتعشت ساقاها، شدَّها فخمشت صدره كهَرة شرسة، عينها على أخيها، وأذنها عند فتحة الباب، دفعها فتدافعت، تصادما ..

ورأته في لحظة المدافعة وغلُّها يفيض من قلبها.

الوجه وجه زوجها.

قوست ظهرها وأبعدته، شدَّ الثوب فتمزق عند الكتف، لاح الصدر عاليًا .. ولمحتْها ..

في ظل المدافعة لمحتها .. ووشى المشهد بسراب العمر، وظلمة الخلاء، وهوانها عليه.

وجدت نفسها محصورة بين الأفندي والجدار، عينها على اخيها وزوجها يلوح في الخلاء ككلب يعوي .. وأنت تجيء الآن لتحل محله، وتفعل فعله !، وتحجزه، تنهشه وتعضه، وأنينها المكتوم ينكتم عند فتحة الباب، وشعرها الململوم ينهل، وتجمع قوتها المنهكة وتدفعه، يتطاير الترتر الأحمر،

وتنفرط الوردات، وشعرها الذي بلله العرق يحجب الرؤية .. وهى تراهما معًا، السيقان والأذرع، والتشابك الحميم، واللحم العاري ...

وتقاومه، يلوي ذراعها وتقاومه ..

يلوح الكتف عاريًا، ومحمَّرًا، وتشهق رعبًا، والشهقة في الخلاء ككدمة اللذة تتعذب بها.

وجذبه بياض اللحم فانقض، عضت أذنه، دفعها، فاحتمت بالجدار، كان يرتعش، والرغبة تسيل من عينيه، ويفضحه حسه .. كانت الرعشة في الخلاء صرخات محمومة .. كانت تشهق وتصرخ وهو ينطرح عليها .. وعينها على أخيها، يحتويها الفزع وتتهدم.

تنطرح بفعل الضغطة، تتغرز أصابعها في الأرض، تلطم وجهها، تهرول على أربع .. ويدس يده في الصدر، وتزوم، تنظر إلى الباب وتنخرس .. وجذبت نفسها، نترت الجسد دفعة واحدة، وماتت يده على الثوب، دفست رأسها في صدره وحجزته، عيناها على الباب .. محمومة، منقضة، مذعورة ..

وهبَّت .. والخلاء يدفعها، ويصفعها .. وتمتد يدها إلى السكين ... سكن الأفندي، خاف .. وانسحب.

تعثرت، ثم سقطت، تكومت على نفسها وبكت.

## -7-

سألتها إن كان حدث شيء مع الأفندي فلزمت الصمت.

تمتمت منفعلة وهى تبتعد

- على أخي أن يعتمد على نفسه

وصلتها ضحكتها، ولم تفتها رفة الحاجب وزمة الشفة .. وخبَّت في مشيتها وراحت تهاجس نفسها، كأنها تعاركها .. وزاحمها شعور بأن الرجال هم الرجال، تساوى لديها الزوج، والصعلوك، والأفندي، والأم، وفوزية والخلاء ... وأسرع إليها الليل فلفَّها في عتمته .. وحجبها عن العيون.

والليل طويل وممتد .. يداهم الحيارى ..

ويأتي بهمسات النجوم ..

ونباح الكلاب ..

## سَيِّدةُ الخَمسِينْ

**-1-**

**فاضت مشاعرها بحب حقيقي وهى تستمع إلى ابنتها**
**تهْمس في خفر وردي: زوَّجتُك نفسي .. شعرت بها**
**تنسلّ كرائحة فلَّه بيضاء، وراحتْ روحها ترفرفْ**
**مزهوَّة وتطل فوق الهامات وتُغرق البنت في من البهجة،**
**وتركت نفسها كيمامة ترفُّ فوق ذؤابات الشجر،**
**والبنت التي خرجتْ بها**

**من الدنيا تكاد تنأى عنها في صحبة الزوج، كترتها في قلبها وأسلمتها إلى مخمل الروح والبدن.**

**تمنَّته معها يسندها، ويؤازر قلبها، يدعِّمه بحنانه – لكن الطائر الوحشي اختطفه قبل فرحة البنت بعام .. كان يحدثها أن البنت هى آخر الأحلام، وأن سفينته آن لها أن ترسو على برِّ الأمان، ويضحك في جلجلة، سنستعيد معًا لحظة اكتمال القلب وبهجة الجسد، لكنه فرد جناحيه وطار ..**

**جلس في نفس المكان، كانت عيناه تفيضان حبًا، وكنت أتداخل خجلًا، تلسعني عيناه بوميض بارق كأنه يتسرب من أتون قلبه .. وأتى بالبنت ..**

وها هى تمضي .. ويخلو البيت عليّ، وتأخذ معها أنفاسها، وصهد جسدها وتتركني لبرودة كالصقيع .. كيف أحتمل بُعدها .. وابتعادها ؟

-2-

في الليالي الأولى – والبنت تنهل شهدها – ترصَّدت المسكن، ونقَّبت في أركانه وزواياه، اطمأنت إلى الأقفال، والمصاريع، ونوافذ المطبخ والحمَّام والمنور .. كان طوافها .. سهرها الليلي .. تنظر إلى دولاب المدارس، وتميل رأسها، تنطبق الأجفان وترتعش فتهب نحوه .. تمتد اليد، تخرج الملابس، تفردها على السرير، تتملاَّها .. تتحسس منامتها وتبتسم، تغض طرفها، وتستحي ! تتشمم الإيشارب، تمرّره على وجهها، تنشقه في خفقة كالنهنهة .. كانت صورتها تخايلها في براح المسكن، وفوق الجدران، وبين النسيج ..

أسندت رأسها على حافة السرير .. ومسحتْ دمعًا ظل ينفضها حتى الصباح .. في الصباح الباكر تزايدت حركتها بين المطبخ والصالة .. وحجرة البنت .. وخرجت التمتمات في احتجاج لا يبين – ستتأخرين عن العمل .. وتزغدها بسبابتها – أعددت لك الحمام .. وتخطف نظرة على المرأة – لا تنسي كريم الوجه .. وتقول وهى تهرول: سأجهز الطعام.

وأعدت الطعام .. وجلستْ في مواجهتها، رأتها عازفة، فلوحتْ بيدها: هذه البيضة من دجاج بلدي، لاتنسي كوب اللبن، اللبن يبني جسمك

وعظمك، لا تكوني مثلي، فتصابي بالهشاشة .. أغاظها تمادي البنت، فنهضت، انحنتْ ومدتْ يدها، وقشرت البيضة .. ونهرتها كيف تخرجين بلا فطور ؟ .. ولما ازداد احتجاجها توقفت، فالبنت ليست صغيرة .. ودققت فيها .. كان الفراغ يراوغها رانيا .. فانحط جسدها وظلت تحدق في الطعام ..

-3-

جاء صوتها مُبهجًا، فارتعش جلدها حتى كاد يقشعرَّ، أخبرتها أنهما سيذهبان آخر الأسبوع إلى الشمال.

- سنقضي أسبوعًا .. ليتك تأتين.

صمتت، وهي تراها بعين قلبها نبتًا مُورقًا يتفتق قشرة عن اكتناز، وعصارة كالرحيق، وردَّت في همس مذهول كأنها لا تعي.

- الأجازة القادمة -

لم تفتها تنهيدة البنت، والنفس الصاهد الذي وصلها .. كأنما تخففتْ من حمل، أو تخلصت من قلق يهجس بها.

- سأطمئن عليك .. كل مساء

والمساء يداهمها بخيمته الحاكمة، وشجرة الأسود، وانفراط حشراته .. التي تئز حتى انبلاج الفجر.

لكنها استشعرت السعادة في لعاب حديثها فسعدتْ.

والغياب يطول .. وحلمها يتجدد، والوجه قمر يتبدى على شباك بيتها ويرسل ضوءه، وعينه وابتسامة .. ويقطف لها كل صباح فُلة بيضاء في كفٍّ ككف ابنتها .. حين تمد أصابعها، تلامس الفراغ ..ويتهدج قلبها دمًا، والمسكن الذي راح يتمدد .. بدا ميدانًا مفتوحًا يلجه من يحب، ويلبد فيه من يريد التخفي .. واجتاحها الهاجس الليلي الذي جعل نومها عكرًا، وكفها يحكم النوافذ.

وتطل عليها في ثوبها الأبيض المزين بالورود .. ويحمر وجهها، يأكلها صداع ينشب ألمه في مؤخرة الرأس، ترقب الوجه في بسمته المكتنزة، وخده الوردي، وعينيه السماويتين، وتميل نظرتها فتراها قابضة على صحبه الورد .. وأمعنت، حشدت في عينيها غيبة البنت وشوقها، رأت أوراق الورد تتألق بالأبيض والاحمر والأرجواني، يتيه اللون منسربًا إلى نسيج الثوب الشفيف، وقبضت أصابعها الباردة على الورد، والوميض يقتلعها، يحرقها فتهرب الوردات منها، وتقفز طائرة في خفقة مبهجة، منْسلة من الإطار لترقد في حجرها مرفوفة كالفراشات ..

ينساب الدمع سخينًا، وينتقض الصدر في نهنهة مباغتة وصوت كالأنين.

– ألا تذكرين أمك ؟

–4–

عرفت الطريق إلى النادي ..

حين ولجته – بعد غياب طال – بدا واسعًا ومهيبًا، وجلتْ فتوقفت، التجديدات التي طرأت عليه جعلته في عينيها جديدًا، وغريبًا .. لن تجد أحدًا ممن كانت تلمحهم في زوراتها البعيدة .. أتعود ؟ أتبحث عن مكان آخر ؟ .. أتترك لقدميها الحركة ولعينيها أن تختار ؟ .. صادت عيناها حمامة بيضاء ترف فوق مياه الشاطئ، فقبضت أصابعها .. ومضتْ.

تمرق بين المناضد في خجل، ليس لها صحبة، ولا معارف، تتلفت كأنها تود لو تصطاد وجهًا مألوفًا، وتكاد تنكفئ كأن أحدًا يترصدها أو يتملاَّها .. تهرول خوفًا – وتطوف بعينها في الأرجاء .. وتتوقف، اختارت موقعًا متطرفًا وجلست على مقعد بجوار السور الحديدي.

النيل أمامها، يتتابع موجه في عذوبة، ويفتح قلبه علها تتطهر به وتهدأ، لمحت قاربًا صغيرًا يتهادى على البساط الساكن، رأت نفسها فوق دفته تمسك بالمجداف، تبذل الجهد، وتفرد الصدر فيترجرج، تسوي خصلات الشعر المنفلتة وهو – كما ورد صغير – يفرد الشبكة ويراوغ السمك .. زمان ولّى، كم مضى ؟ عشرون عامًا، لكنه مضى، وبقيت القناطر شاهدة ..

التجمعات الصغيرة شدتها، وصلتها صيحات العجائز وثرثرتهن المضحكة: لمحت البائعات يطفن بالملابس، والسراويل، والخفاف .. زاحم سكونها خبطات الطاولة وصراخ جائر يوحي بالفوز .. مارس خشب .. ولم تُخف بسمتها ! كان في الأمسيات الرائقة يجهز المنضدة، وبراد الشاي المعطر بأوراق النعناع الجبلي، وينتظر خروجها من المطبخ، على كفها

الأيسر صينية الكنافة بالزبيب، وبيدها الأخرى مناشف صغيرة، مطرزة الحوافي .. "كنت أغلبه" .. وتدفع برأسها كأنها تغالبه وهو يتمادى .. من حقها أن تفوز فهذه ليلتها، وأوراق النعناع تحت الوسادة تدعوها ..

– تشربي إيه يا هانم ؟

وانخلعت راجفة ..

كان الموج ينساب في رخاء ويلامس الشاطئ في دعه وعامل البوفيه ينحني .. وينتظر ..

فك الصوت جفنيها .. ماذا تشرب ؟ كان هو الذي يستدعي ويطلب وكانت البنت تحدد وتطلب .. والآن ماذا تشرب ؟، لم تتعود أن تطلب .. وقبل أن ترفع رأسها نحوه قالت: شاي .. خرجت الكلمة دفعة واحدة، كأنما هى عبء تريد أن تتخلص منه، وتنهي حرجًا أصابها .. هل أصابها الخجل على كبر ؟..

عليك أن تخففي من القيود التي تحيط بك، فتكبلك ؟ أخذك صغيرة، كان يقرأ الرغبة في عينيك قبل أن تطل فيلبي .. أسعدك الأمر كله فكففتِ، ناب عنك .. لكنه مضيء والبنت أيضًا .. ودمعت عيناها فأخرجت منديلها والتقطت دمعها ..

الآن وأنت في الخمسين، تعجزين، وتنوئين بقيدك، وجسمك الذي امتلأ أرهقك، وهو الذي كان يومًا مطروحًا، تناوشين به العيون، وتسترين أشواقه .. من يدقق الآن أو يناوش ؟ والذي يقترب سيجد وقارًا يطل

منه، هل أدّعيته ؟ وهل تغيرات الجسد تفرضه ؟ أيبيح لي أن أرنو كيفما هفت عيني ؟ .. أتلفت أضحك، أضج بالصخب، أزعق عاليًا .. مَنْ يجذبه جسد فاض بلحمه .. ومن يأبه بالخمسين ؟!.

وصادقها العيون، فتراجعت ولبدت في مقعدها، هذا الأصلع لا يرفع عينه .. أيعرفني ؟ .. لملمت أشواقها .. وتذكرت خطواتها الأولى إليه ويده الواثقة تمتد إلى الطرحة البيضاء فتزيحها، يتملى الوجه والعين والشفة، وتأخذه رجفة، فيخطفها خطفًا.

ارتجت والبخار يتصاعد مع كوب الشاي.

ضبطت نفسها، وأحكمت صديريتها، أخفت صدرها كأنها تخشى أن يطل البروز فيفضحها، راحت عينها تلقط العيون .. وتهمس مؤنبة .. أيجوز ؟ أيصحو الخامد فيطرد البرودة ويشبع دفئًا يطوف بالأرجاء ؟

**-5-**

نهضت متثاقلة ..

أحست همودًا يضغط عليها، ارتفقت إطارًا خشبيًا به مخرمات وفراغات بأشكال الطيور، أراحت جسدها على المقعد وشعرت بألم في الكاحل ومفصل الركبة، كانت قد خشيتْ على عظمها من عطب يصيبها فراحت تتناول في طعامها الجبن واللبن والبيض وحبوب الكالسيوم .. من أين تأتي نغزات الإبر إذن ؟..

رمقت عيناها أجندة التقويم وتعجبتْ، كيف فاتها أن اليوم هو الثلاثاء وأنه موعد ذهابها إلى النادي .. حركت يديْها وقدميْها .. وتحاملتْ، فتحتْ صدرها وتنفستْ عميقًا، تمايلت يمينًا ويسارًا، أدارت جذعها، ولوت عنقها حتى سرى الدم بطيئًا في العروق فشدت البدن، علت علامات الامتعاض على وجهها وهى ترى الجسد يمتلئ حتى فاض في الأرداف والصدر.

أشعلت فرن الغاز .. جهزت الكوب، وعود النعناع، وضعت الشاي والسكر وصبّتْ الماء، لامسها البخار ساخنًا فأرعش الجلد.

بعثت رشفات الشاي الدفء ففتحت شباكها وطلتْ، السماء صافية، وحرارة الجو مشبعة بالرطوبة .. والموعد حان مع صاحباتها.

بحثت عن بلوزتها الرمادية الخفيفة الموشاة بوردات زرقاء وبيضاء .. سأغلب الحرْ بها، فردتْ أصابعها ودستها، وتعجبتْ كأنها اختفت، لعل يدًا امتدت إليها وأخذتها .. ليس هناك سواها .. كم حذرتها، لكنها تتغاضى أمام خادمتها، تضعف أمامها وهى تأخذها في طقسها الأسبوعي إلى الحمام.

تظل تنتظرها، وتصاب بتوتر إن تغيبتْ ونادرًا ما تغيب.

تتغاضى وهي تنزع عنها ملابسها، وكفها يمرح على جسدها، يمسِّده جزءًا جزءًا، بشغف حقيقي ترنو إليها، رغوة الصابون المعطر يغطي الجلد

وينسل إلى المسام، تنزلق الكف في رهافة إلى التخوم والخفايا، وتروح تتخفى من أصابعها وتتَّقيها، وخادمتها تتمادى وتتجرأ.

لعلها رأت ضعْفي فتجرأت ولم تبالي بغضبي، هل أدركتْ أنني أدَّعى غضبًا فأمعنت ؟ .. تكبس صدري وتبتسم .. "بللت ملابسي" .. والماء يغمرني ويسحب الرغوة وتشهق وهي تحدق فيَّ .. كأنما تراني لأول مرة، وتتملى النعومة الملساء على جلدي .. وتربت في خبطة ليَّنة وتهمس: "ولا بنت بنوت" وتمديدها، وتفرد أصابعها وتقبضها على جلد مترهل وتشده:

(شدة صغيرة لبطنك تبقي عروسة).

وأضحك، وأرتعش، وأشعر بضف حقيقي ..

وأتغاطى ..

وأترك لها جسدي.

**-6-**

يتوسد الحائط في شموخ، وترسل عيناه ومضات إلى عينيها فترتجف، لا تصدق أن شريط الحداد الأسود يحيط بالإطار، هو .. نفسه الذي ظل يلازمها كل هذه السنين، ولا يزال يراقبها وهو متكئ على حائطه، لا يقوى على نظرته التي يخصها كلما ارتدتْ ثوبًا جديدًا، تحمل النظرة لومًا حانيًا وهي تمرق مكن أمامه، خارجة من حمامها، بشعرها المبلول، وقميصها اللاصق بجسدها البدين، وصدرها المحدد في رجرجته الفياضة ..

تكاد عينه تفلت من الإطار وتهرول إليها فتمتد يدها إلى المنشفة وتستر شعرها وصدرها المرتج.

أيغضب مني لأني لم أزره في العيد ؟ .. كان ينتظر مني أن أحضر الشيخ ليقرأ القرآن ويترحم عليه فيأتنس في قبره، أنسيت وصيته ألا أتأخر عليه .. فالوحدة في القبر أقسى من الموت ! تصورته على فراش الموت يهذي، لكنه كان مرعوبًا وعيناه تشيان بمجهول مخيف.

أكان ينتظرني وأخلفت موعدي معه ؟ هل يفتقدني كما أفتقده ؟ هل هو قلق ومرتعب في وحدته ؟ لاشك في أنه غاضب مني، فأرسل عينيه ورائي تراقبانني ..

منذ أن رأته خلفها يحدق فيها وهي تتملى نفسها في المرآة، تمشط شعرها وتسوي خصلاته، حتى تملكها الخوف، وخشيت على نفسها من المكوث في المسكن ليلًا، أو نهارًا، وراحت الرجفة لا تفارقها .. كأنه يترصدها، خيل إليها أن طيفًا يشابهه يطوف في الغسق على النوافذ والفتحات والمداخل ويرسل هسيسًا يتبعه دخان أشهب يتلوى، سرعان ما ينتشر، فتغيم عيناها ويرجها هلع مخيف .. أتهجر المكان ؟ وإلى أين ؟

ترى من تفتح لها قلبها، وترمي حملها، وتخفف من أعبائها؟!

## -7-

حملت العجوز المبخرة وراحت تطوف بالمكان، تطاير الدخان أشهب يتلوى ويتسرب إلى الأركان ومسام الجلد وتحت الجفون.

أخرجت من جراب صغير عظمة بيضاء ناعمة، منحوته ولامعة كأن نسائر اللحم تركتها للتو، انقبض صدرها وتماسكتْ .. عليها أن تواجه هذا الذي يطوف بالليل ويأخذ روحها، فتحت قارورة صغيرة وسكبت بضع قطرات .. فاح الطيب ومشى مع رائحة البخور، خايلها خيوط تتلوى كأن (هبْو) الرائحة سلوك ملونة .. كادت تذهل .. وتصرخ ..

اعتدلت المرأة وأبعدت شالها فتهدل الشعر وجأرت في قوة.

- اطلب مساعدتك .. ادخل ولا تخف.

ملأ فراغ الحجرة صوت ارتطام اهتز له بدنها فانحطت يحتويها الرعب، ندمت حين لجأت إلى العجوز .. تعلم أنه خطأ، المرحوم كان ينهرها كثيرًا حين تلجأ إلى الشيوخ طلبًا لإنجاب تأخر.

جمعت قوة منسحبة وهبتْ صائحة

- لو علم لطلقني

هفَّت المرأة الدخان وابتسمت

- مَنْ ؟
- زوجي توفيق
- الذي مات من زمان !!

واعتصرها الألم، لكنها تمادت، راحت تفتح النوافذ، وتشد المصاريع.

دخل النور ساطعًا فبدد غيمة البخور ثم استندت إلى الحائط وهى تلهث، وصدرها يعلو، ونبضها يتسارع.

ابتسمت العجوز في هدوء ساكن وقالت وهى ترمقها

– أنت سليمة، ليس في الشقة غريب

والمرحوم مطمئن في مرقده

فقط .. اخرجي، واختلطي بالناس.

هدأت، ضحكت، وبكت، وارتجت وانكفأت في حضن المرأة، أخذها من يدها ووسدها سريرها وراحت تتمتم بالأدعية، وقبل أن تغيب في خدر لذيذ ولج سمعها صوت بعيد يرفرف في الأعالى وينادي على أنثاه.

–8–

أعترف أنني كنت أذهب إلى النادي كي أراه، أتخير ركنًا قريبًا منه كي أضمن أن يراني، وكثر تواجده، وكثرت حركاته، إصبعه، شفتاه، عيناه "كابه" العريض، وانفراجة فخذيه، والسيجارة المتوهجة، وبنصره يكتب أرقامًا على راحة اليد، وكنت أرقمه، وقلبي يصَّاعد نبضه .. ظلت أحشائي تتقلص وتؤلمني حتى نقر الطبيب على بطني وقال: زيّ الفل، حلقت، خلعت نفسي وطردت فوق قوارب الصيد، وحوّمت .. لكنه اختفى ..

.. في الشتاء جاء، تأخر شهورًا .. راحت شعاعات الشمس تفلت من ركام الغيم فتدفئ البدن، تفرست في ملامحه وعرفته، انسحب الشعر من رأسه وتهدّل الجفن ولاحت تجاعيد الجبهة والصدغ تنبئ عن اعتلال .. أهذا الذي خايلها يومًا في حيها القديم .. أعطته رقم التليفون، ونقدته ثمن المكالمات .. وأسرعتْ .. أغرقت الشقة بالروائح، ووزعت المسابح في الأركان .. وفتحت أجهزة الراديو على موجة القرآن.

رنَّ التليفون، جاءها صوته رخيمًا فابتهجت، وتورد الوجه .. أومأت في قوة، ووضعت السماعة ..

وزعت "بتلات" الزهور على حافة السور، وفراغات النوافذ .. وراح الدم يسري ويتسرب ويرتعش كدبيب النمل، بدت خلايا الجسد كأنما تهب من نومة مخدرة، وأن لسْعًا كشكات الإبر تئز جلدها، وهبْوًا يهب منها تعرف مكمنه، ودعوة تدعوها إلى أن تنطلق .. فانطلقت.

... كومتْ ملابسها القديمة ودفستها في ركن قديم ..

وارتدتْ ثيابًا زاهية .. ومضت.

## لَحْنُ القَوْل

كان قد قرر في هذا اليوم أن يذهب إلى البنك ليصرف الشيك، ظل يؤجل الأمر حتى اكتشف أنه لم يبق على الصلاحية سوى يوميْن، قلَّبه بأصابع معترقة وشعر بأسى وهو يلمح المبلغ، ربما كانت ضآلته وراء تأجيل الصرف، وتمتم خفية .. هكذا يحصل الأدباء على مبالغ لا تكاد تكفي غداء مشبعًا.

طوى الشيك، ودفع به إلى جيْب القميص .. وانتظر العربة.

كان طريق الساحل يتمدد بطول النيل ويسحب منه هواءه الرطب، عكست صفحة المياه الساكنة قرص الشمس فلاح وجه النيل مرآة تعشي العيْن، أحكم نظارته السوداء ودلف إلى العروبة.

وصل وعامل البنك يتأهب لغلق الأبواب، لم تسعفه المراوح، ولا زخات الهواء البارد فأخرج منديله وراح يلتقط حبات العرق ويمسح وجهه ورقبته، بدا مذهولًا، فهو لم يعتدْ الذهاب إلى البنوك، ولديه عجز قديم في مواجهة الحر، وضغطه المنخفض يمنعه من الحركة الزائدة في الصيف .. ثمّ هو لا يتخلى عن مساره اليومي المعتاد، منذ أن يعود إلى بيته وإلى أن تمتد يد زوجته تسحب فوقه الغطاء، ويظل يتخفى هربًا من الوجه المزاحم بسنحته الداكنة حتى يأخذه النوم.

أوشك أن يصطدم بها أمام "الخزينة" فأدار رأسه وأمعن النظر، لم يكن هناك – من عملاء – سواهما، تقف أمام المحاسب في ثبات مَنْ يتيه بماله .. قصيرة، مدكوكة الجسم، سمراء اللون، تسدل على جسدها وشاحًا يغمرها، تتحرك العين في حرية، تصاحبها خلجات في الوجه، واهتزاز في الحاجبين .. عيناها واسعتان، يجور الأبيض على البني الدائري الدقيق، واقترب.

لاح انشغالها واضحًا ويدها تمسك بشهادات استثمار .. تودعها البنك.

أدركتْ من انحناءة رأسه أنه فضولي .. تركزت عيناه على الأوراق وراح يحصيها .. مدّت يدها فالتقط المحاسب شهاداتها.

– قيمة الشهادة عشرة آلاف

حدق فيها بقوة ولمست كفه الرخام البارد، رمق الرجل وهو يسجل بياناته وقال فجأة كأنما عجز أن يسيطر على دهشته.

– جنيه !

بسطت يدها على الرخام، ومالت بجذعها في انكسارة مجسمة وأدارت رأسها.

– دولار.

شيء ما جعلها تدقق النظر فيه، تلك الدهشة المذعورة تخفي دهاءً، أو تستر غباءً، لم تر في ترددها على المكان مثلما رأت فتحة الفم في شهقته الغويطة، ولا ذهول العين في رنوّها الواهن المستكين.

وشعر بضآلة حقيقية، ما الذي يمكن أن ينطق به وهو يقدم الشيك بمبلغه التافه !، سبعة وخمسون جنيهًا ونصف الجنيه، من أين جاءت بهذه الآلاف كلها دفعة واحدة ؟ .. وكم تمتلك لو كانت بيضاء طويلة القوام !

نظرت إليه في إمعان وتساءلت

- أتودع أيضًا ؟
- أنا أصرف من الودائع

ابتسمت فارتج، حين اعتدلت ظهر قصرها الواضح، قاس المسافة فوجد رأسها تقارب كتفه، واجهته بعين مفتوحة فاحتار في بياضها الجائر.

- الفائدة هنا قليلة

لا يذكر أنه تعامل في الودائع، ولا يعرف نسب الفوائد فأومأ برأسه.

- البنك الآخر يعطيني نسبة أعلى على ودائعي

تقدم قليلًا وحجب بجسده يده وهى تمتد بالشيك .. وتأملها.

ترى ما العمل الذي تقوم به ويدر عليها كل هذه الفوائد !! ربما تكون اغتربت طويلًا، أو ورثتْ .. فورثة هذه الأيام قادمون من المجهول، ويفيضون ثراءً، كوّم الجنيهات ودسَّها في جيبه وتنحى قليلًا .. وانتظر.

شعر بحرج فأخرج المبلغ وبدأ يفرده ويسويه، عقد النية أن يشتري موزًا، وتفاحًا، لم يأكلوا تفاحًا منذ نصف عام أو يزيد، سيختار الأمريكاني الضارب إلى الحمرة المعتمة، وسيقبض في رهافة على السكين وهو يقترب منه، وزوجته تستعجله في غلّ وهو يشرح لها فائدته الطبية وضرورة أكله بقشره وبذوره، حيث يكمن فيتامين الحياة مباشرة، البذور والألياف تحمل النشاط والقوة .. وضحك فجأة والولد الكبير يزعق "لا تخف لن نرمي شيئًا".

خطفتها الضحكة فزامت، ثم نظرت إليه وقالت:

- في البنك اثنا عشر ألفًا

جرتْ الدهشة فأكلت الوجه وقبضت على الملامح.

- أنت لا تصدقني

حكت له أن البنك الآخر يتصف بالمرونة، والانضباط، لا تنتظر كثيرًا في الإيداع أو السحب، يتعامل مع العملاء باحترام .. هل لأنه بنك مشترك .. أنت لاتجد من بنوك الحكومة إلا الإهمال والإساءة ..

لم تفارقه الدهشة، جاء حديثها كالمفاجأة .. لم يتوقعه، وكأنها تستدرجه إلى الشعور بالتباهي .. وألح عليه السؤال .. من أين ذلك كله ؟ .. ها هو الموظف القديم والكاتب الذي سحبت منه الكتابة ماء العين وراء الوجه، يجفل سعادة وهو يتحمس بأصابعه هذه الوريقات النقدية الضئيلة .. إنه عطاء الأدب .. وتكاد تتكسر نظرته وهو يردد في تأفف .. عطاء الأدب، ماذا أخذ منه !! .. يكفيه أن يرى ولديه فرحين حين يريان الموز، والتفاح الأمريكاني ..

صادت عيناه مسحة من الحزن تفرش ظلالًا قاتمة على ملامح الوجه، لم تفته زمّة في العين، وعبسة تشد الجبهة، لاحظ من حركة الصدر أن نفسًا عميقًا يتسلل إلى الداخل ويخرج ببطء .. مثله حين يقع تحت ضغط نفسي، فيظل يتعامل مع النفس بالعمق والبطء اللازمين حتى يتخفف قليلًا مما يحس به من ضغوط وأثقال .. لكن أية أثقال .. وهى ترقد على مال يجلب الدفء والراحة معًا !

بدت كأنها تخجل وهى توقع الأوراق البنكية ..

انتحى جانبًا، ووقف، به رغبة مسيطرة أن يتعرف عليها .. فقد يأخذه الحديث إلى شواطئ فسيحة ومياه تصطفق.

لم تكن قد استراحت في مقعدها وهى تلملم أشياءها حتى وجدته يقترب .. تركت حقيبتها على المقعد المجاور واستمرت في تنظيم أمورها.

فاجأته قائلة:

– مكافأة المعاش

تملّى وجهها وظل يحدق، استعادت ضحكته، فلاحت أسنانها في بسمة مراوغة.

– سويت معاشي مبكرًا من الشركة

لم يفتْه تلك النظرة المتطلعة التي تقيس لديه ردود الأفعال، وكأنها تنتظر منه أن يحكم عليها، وأن تلمح هى في ملامحه درجات من القبول .. أو الرضا.

– يسوون المعاش – هذه الأيام – في سن الشباب

رضيت، فضحكت، فترجرج صدرها، حملت حقيبتها واتجهت نحو الباب ..

كان شعور داخلي بالرضا ينبت في زوايا القلب ويمضي إلى الوجه فيكشف عن حالة تتلبسها وهى تتواجه مع رجل، يقترب الحديث من تلك الحافة الخطرة، وينبئ عن فزع حقيقي، تداري غيمة الحزن، ترتعش اليد، وتمتد الأصابع إلى الوشاح تمسحه، تؤرجح حقيبتها، وتروح عيناها بعيدًا .. شعرت بأن عبارته طهرت بعضًا من أوشاب النفس، وحركت رغبة دفينة تدمدم فوقها وتضغط، لا تسمح للغطاء أن يتحرك مهما انضغط البخار واحتبس.

لا تقوى على مواجهة عيون الأهل ونظراتهم المصوبة كالأسنة، ينضغط الصدر، ويفيض بهمٍّ موصول، وهم يحتجون على حياتها وحيدة بلا أنيس.

غادرت البنك إلى الكورنيش، بدا النيل من وراء السور المدبب يدفع موجه في همود والشمس تصلب ضوءها على مرآته فتؤذي العيون، شدت جفونها، واصطادت نسمة هاربة أدخلتها صدرها وتنهدت.

– أنا لم أتزوج

ما هذا الدبيب الذي يشعر به ؟ وما الذي يجري في عقله ؟ وأية زلزلة يمكن أن تغافله، فتشاغله ؟ .. غريب أن تتحدث امرأة ذات مال عن نفسها بهذه الفطرة التي لا تعكرها حسابات الزمان، ولا ردود الفعل.

كلفها الأمر مشقة كبيرة وهى تواجه الألسنة وتحتوي العتاب، ظلت تناورهم حتى غلبتهم .. لكنهم لم ييأسوا .. يريدون سترها، وتفضل – هى – الوحدة.

كانت قد قبضت على بهجة الحياة وهى جالسة، وتتنزه معه، وتنظر في عينيه، ترى البحار، والجزر، والحدائق الوارفة، وآفاق السماء .. وأجنحة الملائكة .. وهو يطل البهيّ الجميل .. وكادت أن تحضن الكون.

على الشاطئ الجميل، لعبا، جسَّدا أبنية وكهوفًا، واختلجا .. سنّا شفرة الحب واحتدما، ترطب المياهُ ملامس الأقدام فيرتعش فيهما الحس وتذوب تحتهما الرمال، وتفسح لهما لينطلقا .. كأن الألق يفيض ويُعدي، فراح المصطافون يضجون بالفرح.

كتما فرحتهما، وخشيا من الحسد، أخذها وراحا يتحسسان الماء، والرمال المراوغة تخدع الأقدام .. ظل يهمس في تمتمة المحب .. سأضع بين يديك اللآلئ والمحار .. وسأضع بأناملي التي تعودتْ على نحت الجمال عُقدًا وقلادة، وأوسمة.

وتسترق السمع ساهمة، تتفتح المسام ولا تنغلق، كأنها موعودة بلحظة التناجي .. وهو يراها غائبة في ماء النيل كأنها تطالبه بوديعة لها.

قال في قصد بطيء:

- كيف لم أرك من قبل ؟

دون أن يدري يضع يده على جرح قديم، يردد العبارة نفسها التي همس بها قبل أن يغيب ويختطفه شيطان البحر، يقولها ترضيه، تدرك ذلك فتقدُّم العمر واضح .. لكنه كان يقولها وقلبه على طرف لسانه ودمه الساخن بحبه يلفح الوجه، غمس الحروف في دمه، ولوَّنها بوجدانه .. لكنه راح.

- لكنّه راح

رأى العين تبحر بعيدًا، وتغوص في وجه الماء، تستطلعه وتستدعيه كأنها تنتظر طفوه، بعد غوصة طويلة يجمع فيها المحار، ويقدمه لها، يذكرها الماء به .. كيف لم أرك من قبل !! .. وضحك الأفق كله فانفتحت السماء وأطلت الملائكة تضحك، ورقصت الأسماك، لم تبال بالمترصدين ولا فتحات الشباك، أو الحناءة الهلب .. عكست قشورها ألوان الطيف .. فترقرقت ملامحه على الأفق .. وفجأة .. امتدت أجنحة الملاك الأبيض، ثم

خفقت وطارت به .. وانسد الأفق بدمعة ساخنة، وصرخت في فزع .. فغاصت الأسماك في عتمة الموج.

حاربت أهلها من أجله .. لكنه راح، وافقوا راضخين .. لكنه راح وخلف وجعًا موصولًا .. كيف لها أن تنسى خفقة الحب الذي لم يأت ثانية.

– أنت تذكريني به

يراها غارقة في زمان بعيد .. وهو الذي جاء على غير موعد، يشتبك معها، ولا يدري إلى أي مرفأ يصل ! كثيرًا ما تبحر، وقلاعها مفرودة لم تُطوَ بعد.

أدار ظهره للنيل وتابع حركة البشر، ومسار العربات، ران صمت رهيف ورآها تبتعد قليلًا وتقول:ذ

– أريد أن أعتمر .. هل المحرم ضرورة ؟

باغتها وعينه تترع في وجهها وتسد مجال الرؤية.

– دعيني أبحث لك عن زوج.

جفلت فاستدارت مرتين

– خطبت مرتين، وتوفيا قبل الزواج.

رأته يبتسم، لكنها صادت فزعًا من خفقة العين .. وواصلت

– ألا يدعو ذلك إلى الخوف ؟

لا يقوى على الإجابة، فهو واحدٌ ممن ترصدَّهم القدر في بداية مشواره، وها هو الجانب المستتر يكاد يتجلى الآن واضحًا وبارقًا، نافضًا عنه غبرة القدم .. فرضته الحبيبة الأولى على الأهل، طارت به محلقة، نامت على صورته، شدَت به كلما تحدثت إليهم، وهامت به. كانت تصلي وتدعو الله أن يقبل حبه، تصحو ولسانها يردد اسمه، حتى غار الأهل، وخافوا أن يمسها الجن، رفضتْ أن يضللها أحد، فهي تحب، ظلت تصرخ وقلبها يتعالى بدفق الدم.

– ما شأن الجن بالحب ؟

كان جسدها النحيل يكاد ينقصف أمام التحدي والرفض .. وكانت تقاوم، ولما وافقوا خشية على حياتها خطف سائق نزق روحها، ولملمت أشلاءها الملائكة.

تعجب كيف يصحو هذا الجانب الخفي من غفوة طويلة وكأنه أمر مقصود، ومع أن الزمان يُنسى إلا أن الذكرى خلفت وجعًا حقيقيًا.

ربتتْ على كتفه فلا شيء يمنع أن تقترب منه وهي ترى عينيه تتدَّيان بالدمع، هل قربهما الفقد والحزن وتماثل البدية ؟

– خطف الموت حبيبتي الأولى أيضًا.

وسحبت من عينيها البريق وهي ترنو إليه .. وقالت في تضاحك:

- أخاف عليكم مني.

اتكأت على السور وثنت جذعها وراحتْ تؤرجح قدمها، رنتْ إلى قرميد الرصيف المخلوع وأحست بفراغ، وشعرت بأن النفس التي تعودت على السكينة تكاد تفارقها .. ولاحت لها الحفرة بترابها وحجارتها تتداخل في باطنها وتعمق ألمها، وتجذبها إلى البؤرة .. هل خافت أن يعاودها الشؤم مع أنها تدربت على الرضا والامتثال.

وظلت تراوغ الحس الذي يشتعل حينًا وهى تواجه نفسها متلبسة بالدخول في كهف اللذة على الفراش، أو اصطياد الجسد في برودة الزجاج وبريق المرآة.

اقتربت منه، وتملت في وجهه، رأت جبهته العريضة المتغضنة، وشعر فوديْه الأبيض، وجفنه المختلج، وشعرات حاجبه النافرة .. ونَفَسَه الذي يسرع كأنه اللهاث، أخرجت من حقيبتها عبوة من النعناع، ثم أحكمت إسدال الوشاح حتى غطى الجسد واقترب من الفخذ.

مضت نحو مقعد رخامي، وسار معها، جلسا يستدبران الشارع ويرنوان إلى النيل، ينعمان بمائه، وشطيه دون اعتبار للهيب الشمس الحارق، شد عينيه طائر صغير - كالقبّرة - حط على الشاطئ، ونقر في الحصى، ورشف الماء، ثم حوّم بجناحيه متعرجًا حتى اختفى.

قالت وهى تفض الغلاف، وتلتقط النعناع

- لم تقل لي .. هل المحرم ضرورة ؟

أنقذته من وجعه فقال

- هناك جمعيات تقوم بهذا العمل.

زغدته في فخذه ضاحكة

- يقولون إنني صغيرة السن.

استدار بجسده كله، وشت النظرة بخجل طارئ .. ما الذي جعله يميل عليها ويتملى الوجه، والذقن، واستدارة الخد، ورهافة الشفتين، وزمة الساقين، وبروز حنية البطن، ويقترب برأسه حتى شعرت بأنفاسه وهو يهمس.

- نبحث عن زوج ملائم.

شقتُها التي تقطن فيها كاملة .. الأثاث، أدوات الكهرباء، وسائل الترفيه.

فكرت أن تشتري "الدش" لكنها وجهت باعتراض الأخ .. حياتها بمفردها ضيق عليها متع الحياة، وفرض عليها قيودًا لا تحبها .. زيارات الأهل قليلة وأولاد الأخ صغار يحتاجون الآباء، لا تكفيها المرات القليلة في الأجازات .. وتلح زوجة الأخ أن تنتقل معهم، وتؤجر الشقة في مقابل عائد مالي وفير .. ورفضت .. كيف لها أن تبيع أيامها برضا الأخ .. وهى تطل عليه عبْر المرايا، والجدران، والمسام، والأوراق، ونبات الظل، والأكلمة ومقاعد الردهة ..

لم تفته تلك التنهّدة التي انفلتت منها وغاصت بالصدر.

- الوحدة كالغول

من علمها العبارة التي يرددها كثيرًا، هل تعرف الوحدة مثله ؟ أكلّ من يحيا بمفرده وحيدًا يصيح وحيدًا !! أتدرك قسوة أن يكون الإنسان وحيدًا وسط أهل وأسرة، تتراكم الأجساد، ويتناثر الكلام وتظل القلوب جامدة، يتنحى الدفء، وتمرح البرودة، وتتمدد المساحة حتى تخطف ما تبقى من الأنس، تدخل وتخرج وحيدًا، والناس ينظرون إليك ويحسدونك، منْ أدراهم بما تنطوي عليه النفوس !

- الزواج هو الحل
- بعد هذا العمر !
- ليس ذنبك أن يسووا المعاش مبكرًا

أدركت المعنى، فحجبت ضحكتها ولم تعلق .. تباطأت ثم علقت باهتمام مندهش.

- لكنه زواج لغرض !
- اجعليه موصولًا .. ولا تقطعيه

ومبهوتة بفرح غائب قالت وكأنها تزن رد الفعل وترصده.

- في هذه السّن

خرجت العبارة مغموسة بحرارة الحشا، هاربة من تجويف القلب، حتى لتحس بقطرات الدم تشكل الحرف وترسم المعنى، لاح قولها كأنه يزيح

ركامًا ثقيلًا يضغط على الصدر والنفس والعصب .. مَنْ يقو على هذا العبء !!

هل تبيع عمرًا بزوج ؟!

تعجبت كيف واتتها الشجاعة وآزرها الوقت ليصل الحديث معه إلى هذا الحد ! لم تنكر الشعور بالراحة، ولم يقفز شيء من محاذيرها القامعة، فما دار في هذا اللقاء جاء عفويًا، وطيّعًا، وامتد حتى احتاج الجسد إلى الإرتواء من عطش سببته الحرارة، وهيجان النفس.

وشملتها سعادة بادية، الجسد ينبئ عن نفسه في ارتعاشاته، والوشاح يتمايل ويكاد يلفه في خفقة طارئة، اليد تطارح الهواء وتدفعه، الضحكة الموصولة تداريها في "عبِّها" .. تخشى أن يصطادها أحد واقعةً في نزق الفرح الشحيح.

جلس يرمقها وحدْس داخلي يهاجسه بأن الداخل فاض، وأنها لم تعد قادرة على كتمان الجيشان، كان اهتزاز الجسد المدكوك يشعره بأنها تقاوم، وأنها تحاول أن تتوازن بعد أن تسرب منها الحس المكتوم الذي ختمته ووأدت دمدمته ..

نهض ومدَّ يده فمدّت يدها، ولأول مرة – منذ التقيا – تسمح لكفها أن تنام بين أصابعه، راحت الأنامل ترتجف حتى إذا استراحت الأصابع، واحتوت اليد طراوة الكف .. تلامس الذراعان .. واستند إلى السور الحديدي المدبب.

أخذه الموج الساكن واهتزازاته الشحيحة، والقارب ذو الشراع المفرود، وصخب الشباب الذي يعلو، وعيون المحبين المغموسة في القلوب، ولّوح بذراعيه، صنع دائرة تجمع النيل بشاطئيه .. وقال في نبرة كالتوسل:

– لو توافقين !، نصف ساعة فقط على ظهر قارب..

سهمت العين، ثم أطلقت وهجًا.

– أنا .. !

وأتاها الجسد فاستدارت، ولاحت حركتها موقَّعة كأنها ترقص .. لم تعبأ بأحد يصطادها، حتى ولو أضحت فريسة، من يأت لها بمثل هذا الزمن المخطوف، يعيد جمالًا ولَّى، وفرحة شحيحة ..!

وأحاطها بذراعه ..

وسمحت للذراع أن يحتوي الظَّهر ويستريح.

أرجحت حقيبتها وهما يسيران بمحاذاة النهر .. والسور المدبب الساخن، وبدت وهى توقع الخطو في تؤدة، كفرسة ذلول، مالت عليه، تكاد تلتصق به، حتى أوشكت خطواته أن تختل ..

ومضيا صامتين، حتى إذا اقتربا من مرسى البواخر همس

– تذكرتان .. ولا ترفضي .. فالنيل يغريك كسمكة

– أيليق بواحدة تود أن تعتمر !

– وتحج أيضًا ..

ضحكا في زعقة واحدة، فالتفتت الرءوس .. فابتعدا.

وأحست به يقبض على القلب، ويعصر الصدر، ويوقف العين، ويلوي العصب .. فتوقفت، أخذت نفسًا عميقًا وأخرجته دفعة واحدة، أحس به كاللهب، أحكمت وشاحها، وبسطت أصابعها على صدرها .. وامتثلت .. وكمن أطبق العين ثم فتحها، جاءها الشعور الحاكم بأن تعود، أن تخلع نفسها مما هى فيه، وأن تنتبه ..

هى الآن في المكان الذي كان يجب أن يقف فيه، يتأمل الشاطئ الآخر، يحببها في النيل، يتغنى بموجه، ودكنته، ووداعته .. يشاكس الأشرعة، ويراقب الطيور وصائدي السمك .. يأخذها إلى الوراق .. والمقياس .. والقناطر .. يعشق الماء ويهوى الغوص، يدفع الموج أمامه سابحًا .. خالته مولودًا على شاطئ نهر .. وكان كلما قذف بنفسه نحو الماء غائصًا وسابحًا، خطف قلبها .. لكن الرمال سحبته وهو يندفع في نزق مخترقًا موج العجمي دون أن يدري أنَّ صدعًا هائلًا سحبه وأخذ روحه.

ظلت تتساءل زمنًا طويلًا، كيف خانته مهارة العوم، فأورثها وجعًا في القلب، وها هو النذير يعود من جديد.

واجهته فلمح انطفاءة في العين، فتساءل مأخوذًا ..

– تشعرين بتعب !

ظلت صامته، ويدها منطرحة على الجسد، أصابعها مفرودة، ووجهها باهت كأنما سحبت منه الماء.

- أفضل الذهاب
- لكننا لم نحسم الموضوع

راح يحدثها عن صلاحيته لحياة مشتركة، وأنه على استعداد لمصاحبتها في سفرها، وأنها دخلت قلبه فاستراح لها، كأن شيئًا مشتركًا جمع بينهما على غير توقع .. وهو لم يعرف الطريق إلى هذا البنك يومًا، ولم يقتحم أحدًا مثلما حدث اليوم كأنه مدفوع بفعل غيبي، ثمة توق إلى الخروج من الدهليز شعرا به معًا، وجاء اللقاء أداة للكشف والتسلل.

لم تدعه لاسترساله، قاطعته وقالت فجأة.

رنت إليه كأنما تخشى مغبة السؤال

- وتخرجوا !!
- كل في طريق

أدارت وجهها نحو النيل فرأت القارب يقترب من المرسى ويرخي الشراع ..

- تزوجوا
- نعم

لاحقها وهى تلملم نفسها وتخلع بصرها من سكون النيل .. وهى تستدعي طاقة كامنة لعلها تساعدها في القول.

- وزوجتك

– مشغولة بهم

أخذها الذهول الصامت الساكن الراعش وانشغلت بها .. بدت العصفورة متعبة فحطت على السور المدبب الساخن، كانت مخالبها الرقيقة لا تقوى على القبض، ناوشها الصغار ففردت جناحها وطارت، التوى طريقها.

بدا الإنهاك واضحًا، فخافت، سافرت عيناها مع خبطات الجناح المتعب .. اطمأنت حين رأتها تستقر على غصن صغير لا يبين، تتشبث به كي لا تهوى .. أحكمت وشاحها، وابتل الجفن وهى تراها تعافر كي يتوازن الجسد مع ذؤابة الشجر.

خلعت عينيها ومدت يدها

– لا أحب أن أسيء إلى أحد

وأمعنت فيه النظر، وجف الجفن الذي كان مبتلًا، والرمش المخضل بالدمعة الهاربة نفر كالإبر.

– سلّم عليّ ودعْني أمضي

أراد أن يستبقيها فاستدارت ومرقت مولية ..

وشعر بتنميل يشمل جسده كله .. ورجفة تمشي على جلده، وحبيبات دقيقة عند منابت الشعر.

**ودلف إلى الشاطئ .. وقف عند المرسى يرنو إلى النيل الساكن .. ووجد نفسه يتزل الدرج .. ويخوض في الماء.**

## صَانعُ البهجةْ

هذه المرة كظم غيظة.

تلقى الركلة في بلادة، حرص أن يبعد عن وجهه الممسوح الشعور بالمهانة، فعائد وجهه وابتسم في شحة .. كم من مهانات طالته وهو في خدمته !

كان الساقي، والعارف برغبات السيد، وصانع البهجة له ..

وكظم غيظه، هذه المرة كظم غيظه، وباحت عيناه بألم مستكن، وغامتا وهو يرى يد السيد تأمره أن يمضي ..

لملم نفسه ومضى ..

ألح خاطر، أبعده طويلًا .. هل جاء الوقت، وحان الموعد ! هل يقوى على الصيد، وكسر الرقاب ! .. أتندك العروش الواهية ؟

ربما تصبح متعته فيما بقى له من عمر.

وربما يصير أمه بأكملها .. من يدري ؟

***

انزوى الرجل بعيدًا .. وابتعد عن العيون.

غاب طويلًا .. سألوا عنه كثيرًا .. حتى ملّوا .. فنسوه.

واعتزل الناس.

اعتكف في قبو قديم بالقرب من مسجد صغير على أطراف البلد، ودرب نفسه على معايشة العتمة، والرطوبة وعطن الرائحة .. ظل يكتم على الخاطر حتى غلبه فاتخذ طريقه إلى الخارج ..

دهمه الفضاء فارتج بدنه .. وسرى خدر لم يقو عليه .. بدا كأن جسده يتهدم، ارتتفق النتوء الصخري .. وتنهد في عمق .. حتى كاد يحس بسريان الدم في شرايينه .. وتمتم وعيناه ترتجفان، كل هذا الغياب.

فاجأته السماء بانسامها وغبش الأصيل يحزم الأفق ويحيط بالغيم، رفع رأسه عاليًا والخيط الرمادي يمسك بالأرض، وريح شمالية تحرك ذؤابات الأشجار على مدقَ القناة الرفيعة.

وأمسكت أهدابه رفرفة عصفور يدلف إلى عشه، فهمس في نبْر عالٍ "آن الأوان".

.. أرسل إلى صانعات البهجة فلعلهن يرددْن له الجميل.

حين جئن وجدْنه على حال لم يتعودها .. اللحية مرسلة بشعرها الهائش .. وجديلتان من شعر كثّ .. ملبس قديم بمزقة البادية وعلى ذؤابة الرأس طاقية مطرَّزة بخيوط خضراء وصفراء ودوائر حمراء، ونجمات بيض في الوسط.

وكان الموقد الصغير تعلوه كنكة صغيرة .. وثمة فناجين وبرطمنات وعبوات متناثرة، وغيمات من البخور، وسحائب من العطر .. وآنية من الفخار ملأى بقطع متساوية من الفحم ..

وحين انصرفن .. عرفت النساء الطريق إليه.

شاع عنه أنه مهاجر من بلاد بعيدة، أبعد من حدّ السماء، وأن بغلته التي صاحبته في سفرته الطويلة نفقت عد خط التماس مع البلدة فحط الرحال واستقر، وأنه أتى ومعه تعاويذ هاروت، وسحر ماروت القديم، وأنه جاء على قدر، وأنه منذور لشفاء الروح من عتمة الجسد.

***

في هزيع الليل مرقت إليه.

كانت تتَّشح بالسواد، ويرتجف بدنها وترتعد فرائصها، وأنفاسها تكاد لا تقرَّ في صدرها .. كانت الأولى التي غامرت وحضرت.

ظلت أوقاتًا طويلة تكتم ما يعتمل في نفسها، ولكنها حين علمت مِمَّن يمشين بسيرته بين الناس قررت أن تجيء ..

ظل على حاله وهو يراها تنزل الدرج.

هفَّ بيده على المبخرة، فانسكب الدخان وزاحم المدخل كأنه يستقبلها، تريثت، ثم فتحت ذراعيها، وتلقفه، كانت الموجة لاهبة فارتجَّ الجسد وانهلَّ ملبسها، ولاح صدرها مشرئبًا، أغمض عينيه وأدار رأسه وأومأ ..

تجاه حشية مستديرة كأنها متكأ، قعدت ففاضت جلستها وبانتْ ساقاها ملمومتين.

ورمقها بركن عينه وهو يحني رأسه ويميل كتفه، وأدرك أنه أمام امرأة لحيمة وفتيّة، وأن جسدها يشغلها ..

دق بطرف عصا رفيعة صاجات ملونة ودقيقة، فسرى الصوت رنينًا موصولًا وخافتًا، رنتْ بفتور وهى تلمس أنفها واطمأنت والفتى الأمرد الصغير يزيح الستارة الخضراء وبيده كوب تفوح منه رائحة الينسون .. وضعه أمامها وانصرف.

وكان بها حفيًا وهاجس نفسه في تأمل مدرب: أين كانت حين كان يبحث عن صانعات البهجة لسيده ؟!

هو الآن يستحق الحرمان .. ما دام لم يعد قادرًا على مواجهة القيان .. ولم يعط لصانع البهجة قدره ويحفظ له المقام.

تساقطت حبات المسبحة، فدق قلبها، كانت أصابعه تضغط، كأنما تدلك جسد المسبحة حبة حبة، ورأته يفلتها في مباغتة فإنساب رنين يذكرها بقطرات الماء الساقطة في هزيع الليل.

– سيزول السحر وينقلب على صاحبه.

انفرد وجهها .. واستقبلته في همهمة طويلة، انطبقت شفتاها قبل أن تفتحا، ووأدت بسمة كادت تفلت منها، ولزمتْ الصمت ..

كوّم المسبحة، وشمر كمَّه فبدا شعر الذراع غزيرًا ونافرًا.

– سيعود إلى أيامه ..

ومال برأسه خفيفًا، فراقبته، بدا صدغه مكتنزًا، وبه أثر لجرح قديم، جاءها خوف من إمالة الرأس فاستعادت كلامه .. خشيت أن يكون مكشوفًا عنه الستر والسر أو يكون عارفًا بالحال كما كما قالت النسوة اللائي دفعنها إليه .. فما يحدث في الخفاء لاتراه العيون، وليس لهذا جاءت ..

– لكن القلوب تعرفه

علا الوجيب، واحمر وجهها وأسرعت تلملم ثوبها .. وتحكمه، بل تشده في قوة كأنما تخشى أن يتخطفها أحد.

– ستعومين في بحر اللذة.

ملأت عينيها منه، وأطل الحزن منها فلم يدعها وعاجلها قائلًا، الأمر طال عليك ..

تصاعدت الهموم فقبضت على الوجه، وحركت الصدر وما فيه، وفلتت منها الكلمة، فخجلت حتى كادت الأرض تميد بها .. ثم عادت وهمست في حياء لايبين

– جدًا

تعجبت مما ينتابها أمامه، أتريد له، أن يعرف أنها صبرت وامتد صبرها حتى نفد .. الأمر أضحى عادة في حالتي .. كيف تطفئ امرأة عطشها دون ريّ !.. وهل هو حذق أن يتعرف على الحالة، ويدرك المستور منها .. ليس لهذا أتيت .. فالرجل يزمع الزواج .. ويرغب في خلف له قبل أن يموت .. ولن يأتي من حرام .. لم أسمح بذلك .. واحتطت .. لمح في عينيها شكا فبادرها

- منذ متى !
- بعد أسبوع واحد من الزواج
- أكان رجلًا !

انفجرت ينابيع مكتومة، فارتج الجسد، وانتفض الصدر، وتحركت الأرض التي تحتها .. وشعرت به يقتحمها، ويطل على ما بداخل رأسها ويكشف خبايا النفس، قد يتلذذ بالكلام .. لكن لا مفر ..

- كأحسن ما يكون
- كم مضى عليه !

أدارتْ رأسها وهوَّمت في مدخل القبو المعتم

- ستة أشهر بالتمام .. لم تنقص يومًا ..
- فترة طويلة على مهرة مثلك ..

ولم يتركها ..

هفّ البخور، ورش العطر زخات وأمسك بمعصمها، فرد كفها، وصبَّ فوق راحة يدها ثلاث قطرات بطعم القرنفل، لسعتها فقبضت أصابعها.

قرّب المبخرة، وسكب على الجمرات ثلاث خيوط موصلة من زيت الكافور .. والصندل .. فهبت الجذوة، وطالتها هبوة من الدفء واللهب والدخان .. فشعرت بلسعة الجلد كأن نارًا أصابتها، فانتفضت ولملمت جسدها.

ونهض .. ومدّ يده وانهضها ..

ساعدها أن تخطو فوق المبخرة، وحبات اللبان والمستكة، تنصهر، وتتشكل أجرامًا، وهيئات، ونفثات الذوبان الدافئ تعلو في تلوٍّ أشهب كضوء نجم منخسف، والقبو المعتم يسقط ظلمته، والرؤية تكاد تغيم وأصوات اللبان تضج وتعلو، ووسوسات ليلية تزحمها وتلج سمعها، وكأنها تحيا حلمًا لا ينتهي.

وساعدها .. أسندها وساعدها .. فخطت .. مدت ساقها وخطت .. انحسر الثوب وبدت ربلتها بيضاء ومشدودة .. كأحسن ما يكون .. ضبط نفسه وسحق هذا الهاجس الذي ينتابه .. والسؤال الذي يلح عليه: أين كانت حين كان يبحث عنهن ؟..

وهو يمسك بيدها .. ويسندها في خطوها .. انسابت من الداخل وعبر اهتزازات الستارة .. نغمات خافتة ودقيقة لرنات صنج نحاسية .. ساورها شعور بالخدر .. فراح يسندها .. والجسد أمامه يخطو ويتمايل،

يميل فيحجزه ويتكئ والرنات .. نمنمات صوتية، والبخور أدخنة بضوء النجوم .. وانفك الجسد، انفرطت أوصاله .. فأخذ بيدها، وأجلسها.

دلف خلف الستارة، وغاب قليلًا وعد تفرش وجهه بسمة عريضة، قدم لها قوارير وأقطانًا مبلولة .. ووقف أمامها وجهه في وجهها وعينه تدخل عينيها في تحد كأنه يغزو .. وانساب الكلام مرتلًا.

- اغتسلي بماء الورد، وادعكي الجسد بماء الزعفران، وازْرعي شعرك ياسمين ..

وأتي زوجك والليل ينسلخ من النهار .. ولا تدعيه قبل الآذان.

مدت يديها، بلهفة الحرمان، وعبتْ قواريرها، ودستْهم في صدرها وأحكمت، وقبل أن تمضي .. مدت يدها بالمال ..

نهرها بشدة فأعادته ..

تمتم في مودة خالصة وعينه لا يفارقها البريق

- الله يؤجرنا

ومدَّ يده، وربت على كتفها آملًا أن يصلها هذا الودّ الذي يظهره

- إننا نصلح النفوس بمشيئته.

غلبها صمت ممسوس فقال في تهدُّج

- الجسد بوابة الروح .. والراحة

وأشار إليها أن تمضي .. فمضت ..

***

عرفت النساء الطريق إليه، وأبانت الأجساد عن عللها، والنفوس المنكسرة عن سعيها إلى الالتئام .. وهو – كما هو – قابع في قبوه ترفرف عليه رغبات مكتومة ومتوحشة تمتلئ بها الأجساد حتى كادت تئن بحملها .. كشجرة تنوء بثمرها.

رنا إلى الجالسات واختارها، صادها عيناه فنهضت .. وذهبت الوجوه وراءها في لهفة وكمد معًا، فيهن من جاءت مبكرة، وسبقتها بزمن، وفيهن الجميلات .. أيضًا .. ورحن ينتظرن.

كان وجهها يسيل دهشة وقلقًا، وعيناها يفيض منهما قطْر من السعادة والحزن معًا، أقلقها أن تلبد في البيت لا تبرحه، وأكل قلبها هاجس ظل يداهمها، أن تفشل فيما جاءت له ..

هى الصغيرة القادمة على كهلة فرطت في بدنها فترهل حتى بدا كزكيبة، جسمها المبروم، الفتيّ، الذي خرطه خراط البنات بإزميله المقدس .. لا يكفي .. فلابد أن تهتز الرحم لتأتي له بالولد .. أو حتى بالبنت .. لكم تاق زوجها، واشتاق، وبخل الزمان عليه ..

ودق الرجل الصاجات.

ترامت أصوات متداخلة كالإيقاع الخافت، والفتى الأمرد يبزغ من وراء الستارة، وبيده السقاية يصَّاعد منها بخار أشهب برائحة الزعفران، وصحن نحاسي مسطح ومزين من الحواف – وضع أغراضه على منضدة واطئة .. ومضى.

مدّ الرجل يده، وقبض أصابعه .. أخرج الدواة من صوان صغير وشرع يهيء "الريشة" ويغمسها، كان يدخلها في أناة ويخرجها في بطء، كانت حدقته تنفتح عليها وهى تمعن البصر على الدواة وعلى الريشة الوالجة، الخارجة وتتذكر المرود والمكحلة .. وتتنهد، وتُغضي حياءً.

فتح سفرًا أسود الغلاف وتنقَّلت عيناه بين صفحة الكتاب والورقة الصغيرة التي فردها ورنا في إمعان.

–لن تتْركك البدينة،

طالت رقبتها وهمست:–

– لا أحمل لها ضغينة

راح سنّ الريشة يكتب في استقامة، وإمالة، وتدوير وتثليث وتشكيل.

– النفس أمَّارة بالسوء

عصرتْ أصابعها ورعشة مشتْ على ملامحها.

– تربُدني أرضًا لا تُنبت.

وضع الورقة أمام فمه وراح لسانه يتعوذ

- رحمك منقبض على رأس عفريت

فلت منها صوت مرتجف وناعب ومتوسل

- اصرفه .. اصرفه بحق ملك الجان
- تموت النطفة قبل أن تلج
- إهي وراءه ؟
- العفاريت مسخَّرة.

سوَّى الورقة وأودعها الصحن، صبَّ عليها قطرات من ماء الورد، وذاب الحبر، وفاحت رائحة الزعفران.

وضع السائل في زجاجة صغيرة .. واقترب منها مشدَّدًا

- الليلة تشربين مقدار معلقة صغيرة بعد الأكل .. ثم تضعين سبع نقاط على ماء بارد وتغتسلين.

ضحك وجهها، ولاحت الفرحة، وبدت أسنانها بيضاء ومصفوف

- تكررين ذلك أسبوعًا، ثم تعودين ..

وهو يمد يده إليها، إيذانًا بالانصراف

- احرصي على أن يأتيك زوجك بعد يومين.

***

شاع الخبر، وردّد الناس أن امرأة التاجر الغني حملتْ .. وصله الخبر قبل أن يشيع فسعد به.

عرف قبوهُ استقبال المؤن، والأغراض، حتى ضاق المكان بها فراح يوزعها على الفقراء والمحتاجين.

وتردَّد اسمه، حتى نافس سيَده القديم.

***

اشتكت الكهلة البدنية – بعد أن انجبت ضرتها – علة في الجسد، خشيت لو أهملتها أن تزداد، فتأخذ ما بقى لها من مكانة عند زوجها، فذهبت إلى الرجل في قبوه.

عرفها، فاهتم بها وأقبل عليها مبتسمًا

– لا أخالك تريدين طفلًا !

خطبت على صدرها مستنكرة وقالت مستسلمة

– إرادة الله.

وقبل أن تفتح فمها وتبوح له بعلتها، جذبها وجهة فحدقت، شيء ما جعلها ترفع رأسها وتحدق فيه، وتنيم عينيها على وجهه، لم تقو على إعادتهما، بدت الرغبة جامحة كمقذوف لا يرد، وحدقت، وراحت ترصد الرجل في إمعان، العين، والأنف، والحاجب وتدويرة الجبهة، وامتلاء الشفة، وانسياب الذقن .. وخبطت صدرها في في ذهول ودهشة ..

ولمتْ ثوبها وأسرعت مارقة، والغيظ يأكلها وهو يردد: ألا تريدين طفلًا؟..

***

اشتكت الكهلة البدينة – بعد أن انجبت ضرتها – علة في الجسد، خشيت لو أهملتها، أن تزداد، فتأخذ ما بقى لها من مكانة عند زوجها، فذهبت إلى الرجل في قبوه.

عرفها، فاهتم بها وأقبل عليها مبتسمًا

– لا أخالك تريدين طفلًا !

خبطت على صدرها مستنكرة وقالت مستسملة

– إرادة الله.

وقبل أن تفتح فمها وتبوح له بعلتها، جذبها وجهه فحدقت شيء ما جعلها ترفع رأسها وتحدق فيه، وتنيم عينيها عبى وجهه، لم تقو على إعادتهما، بدت الرغبة جامحة كمقذوف لا يرد، وحدقت، وراحت ترصد الرجل في إمعان، العين، والأنف، والحاجب وتدويرة الجبهة، وامتلاء الشفة، وانسياب الذقن .. وخبطت صدرها في ذهول ودهشة .. ولمتْ ثوبها وأسرعت مارقة، والغيظ يأكلها وهو يردد: ألا تريدين طفلًا ؟..

***

.. شاع بين الناس أن النساء اللائي اشتكيّن علَّة حملن بطونًا من الذكران والإناث على سحنة واحدة .. وارتَّج الرجال ..

راحو يفتشون في وجوه الأطفال .. ويدققون ..

كل رجل يبحث عن سمة، أو علامة، أو شامة، أو هيئة أو إشارة خفية، أو وحمة هنا، أو هناك .. تريحه وتقول له .. انه من صلبه، وبلغ الجنون حدّه، وتبلدت عقولهم بغيم مسوّد وانطمس الأفق في عيونهم، واحتجب القمر غاضبًا وكان شاهدهم في ليال التمام .. على اهتزاز الرحم وتخليق النطف.

وحط عليهم الحزن وغلبهم الهم، واحتاروا .. وشغلهم السؤال هل أصابهم العقم ؟.

لسنين طويلة، تزوجوا، وأنجبوا ..

ما بالهم هذه الأيام .. ينقطع رحيقهم، وتجف بذورهم !

وهل يقوى رجل القبو على ذلك كله ؟

.. واقتحمت البدينة جمع الرجال الذين جاءوا إليها، يحدوهم أمل خافت أن ترطب قلوبهم الواجفة، وتريح نفوسهم المتعبة، وأن تبعد ما امتلأت به العقول من ظنون.

طوحت بيدها كأنما تزجرهم، ورمت بشالها الأسود على صدرها، والشرر يتطاير من عيونهم وهم يتصايحون

- الموت للنساء
- ليس كلهن
- بل كلهن

رفعت المرأة رأسها في حركة خاطفة .. وعلت عقيرتها بصوت كالعديد في ليالي الموت

- لا تظلموا النساء

بدت عيونهم منكسرة، ورءوسهم تتدلى كثمار معطوبة، وهمهمة لا تبين تسقط من أفواههم، لا يمسكها لسان، أو تمنعها شفة.

رأت الذلة، والمسكنة، وثقل عليها أن ينكسروا، ويبدون حائرين، عاجزين.

- الرجل خدع حريمكم.

وخيم الذهول ..

أيمكن أن يفعل ذلك.

.. نتر بائع الفول نفسه .. وتصلب جسده كالعود .. تمامًا كهيئته حين يخطب فيهم، ويحدثهم عن الغسل من الجنابة، وعلاقة الرجل بالمرأة .. وقبل أن يفتح فمه صالح فيه الرجل.

- أهذا وقته !

زعق بائع الفول في هوس:

- بل هو وقته .. تلك معجزة، الله أراد أن يرينا أن الناس سواسية، وأنه قادر على تسْوية البشر على هيئة .. وجه واحد.

خطت البدينة خطوة واحدة، ونتشت كمَّه فارتج، وامتدت يد أخرى فخطفت لبدته وطوحت بها، وحملته الأيادي ورمت به بعيدًا ..

لاحقته العيون الحمراء .. فولّى مذعورًا.

***

جاءت العيال على هيئة وجه واحد ..

لم يقو أحد على مواجهة الحقيقة، أو طمسها، أو الدوران حولها .. طعنت الحقيقة الرجال، والوجوه المنسوخة تتبَّدى على الأكتاف، وتنظر في تحدّ إلى الوجوه العابسة التي تنكرهم.

وانتحى التاجر بالرجال.

اقترب منهم، وتداخل فيهم، فرد ذراعيه، وأطلق لسانه .. كانت عيناه تدوران فوق الوجوه وتحطان في قاع عيونهم .. وامرأته البدينة تدفعة بإصبعها المنغرز في ظهره كسكين صاح في صوت ممطوط وموحش كأنه يتنادى ..

- يجب أن نتخلص منه

ودار على الأجساد، تربت يده الكتف، وتشد أصابعه أطراف الملابس وهو يهمهم كأنه ينوء بثقل يضغط عليه، وامرأته الفتية تخايله: وولدها المنسوخ يمرح أمامها في بهجة تنعكس في عينيه، وتصل إليها.

– السرعة واجبة .. فمن يضمن أنه لن يمر على القرى المجاورة،

ردد الجميع في صوت مهروس ومنسحق

– الليلة موعدنا

زعقت الكهلة البدينة وقالت في غل

– عند اكتمال القمر

***

حملت النسوة عباهن وأسرعن إليه .. كي .. يحذرونه من غدر الرجال وكيدهم، رفرفت قلوبهن من الخوف عليه فهو صانع بهجتهن بعد جفاف طويل، أقبلن على الله يبتهلن أن يحجب الرجال عنه، وأن يأمر الجان أن يطمس عيونهم ويملأها بالتراب حتى تضل خطاهم .. وسرْن في لَّمة متراصة، وهن يهمسْن في إصرار .. لن يقدروا عليك، ولن يمسوك بسوء، إننا درعك، وبطانتك، وفراشك الوثير، وجناحك الذي يطير، وشجرتك التي ترمي ثمارها.

وأقتربن.

حملت كل امرأة ولدها، ورفعته عاليًا، ثم نادين عليه، حين خرج من قبوه، افترت الوجوه الصغيرة بابتسامات وضحكات زاعقة .. كأنهم يحيونه ويدْعونه.

.. وأدرك الأمر .. فاستعد للرحيل.

أبقى الفتى الأمر في القبْو وأوصاه، أن ينام على فراشه حتى إذا جاءوا خدعوا به .. ومضى .. يحمل علَمه، وعصاه ..

وهرول ..

وهرولت النسوة وراءه، كل واحدة تحمل طفلها ..

وانبعث من أوراق الشجر المبثوث في الطريق حفيف كأنه الحُداء .. راح يحثهم على المسير .. قبل أن يكتمل القمر.

## ما قالته الجارية

.. حكتْ الجارية للخادم فقالتْ

- كان يومًا عصيبًا.
- أسند الخادم مكْنسته واستمع إليها.

***

.. في هذا اليوم ..

انسابت الريح إلى الأشجار فتمايلتْ، ومسحت برعشتها وجه الورد فاحمرّ .. ثم مشت في تأن وخلاعة فاهتز بساط الخضرة وتموجت.

وانْحدرت إلى المسبح فضحك الماء واصطخب وافتر موجُه ثم انسلتْ في خفية فلامست الساق المفرودة فجفلتْ .. خبطت الأميرة الماء في جذل وألقت بجسدها .. وغاصت إلى العمق .. جمعت في كفيها الماء ورنتْ إلى خيوطه الرفيعة تتسرب من فرجات الأصابع ...

داعبها ضوء الشمس فعلتْ شفتيها بسمةٌ فائرة، ولوحت بيدها وخرجتْ ..

استنامت في خدر المنتشى، على أريكة مجدولة من وَبَر ناعم الملمس.

نفضت رأسها فتهدَّل الشعر.

وامتدت الأيدي تدعك الجسد وتلتقط المناشف بقايا الماء.

... حين انسدل الشعر على كتفيها كخيوط الليل، تجمع الفتْيان المرْد ذوو العيون الكحيلة والحواجب المزجَّجة، والطواقي الحمراء الموشَّاة بشريط أخضر مذهَّب الحواف.

أحاطوها وصنعوا من أيديهم قاربًا مفرود الشراع، تلوتْ الأميرة على إيقاع الدُف، وحين رَّق العود، برقتْ العين وارتخى الجفن.

حملها الفتيان إلى جناحها إلى جناحها، وزخم العطور يدغدغ الحس، وغيم البخور يقْطر رائحة زكية.

لهثت الأنفاس، وانداح زيت العنبر على سطح المشروب الساخن، ثم، أشارت بيدها، فأسدل الستار واستبْقت الفتيان.

***

.. فرح الأمير ..

عجز الأمير أن يكتم فرحته فضحك ضحكة رائقة خرجت من قلبه وغطت وجهه، كانت الضحكة غريبة لطول عبسةِ على الجبين كانت تلازمه.

أسعده فرح الأميرة .. ففرح، ولاحت السعادة بادية .. فسعد .. وظل موكب الفتيان المرد عالقًا بذهنه فتمتم.

– ما أروعهم ..

لولاهم لظلت الأميرة متأبية، ومشاكسة.

نادى على الجارية فلبتْ مهرولة.

أمسكت بالعود وعزفتْ

تململ في أريكته فاحتوته بنظرتها وابتسمت.

حدق في ثمرة الرمان وقد تفتق قشرها ولاح حبّها أحمر داميًا .. فعاودته عبسة مفاجئة

كان حال القصر لا يعجبه.

لم ينس في خلوته وطربه أن الأيام تعاكسه، وأن الأميرة تواصل عنادها، وأن القصر امتلأ بالفتيان والغلمان المرد من كل لون وجنس، وأن الأميرة توزع وقتها بين الألوان والأجناس.

وحطَّ عليه حزن مفاجئ داهمه كالمطرقة.

... في هذا اليوم خلطت الأميرة الألوان بالأجناس ودخلت بهم جناحها ..

نحَّى في قسوة واضحة لحظة الفرح الطارئة فحزنت جاريته واغتمتْ.

نظر إليها في همود وقال في أسى:

– ما عاد القصر يبهج النفس.

احتضنتْ الجارية العود وبسطت يدها.

- لا تشغل بالك يا أميري

رَنا إليها في تساؤل:

- لم أعد أرى أحدًا منهم .. أين هم !

نظرت إليه في حذر وقالتْ:

- ألم ترهم يا أميري منذ لحظة ؟

ابتسم الأمير ساخرًا وقال:

- لم أقصد الأميرة وفتيانها

تنهدت الجارية في عمق.

- من تقصد يا أميري ؟
- أشار بيده إلى المكان القريب
- أخشى أن يكون خدم النظافة قد انضموا إليها أيضًا !

كتمت الجارية ضحكة كادتْ تزلزلها ..

- سحرتهم أميرتي

تمتم الأمير في انتشاء

- ما أروعها يا جارية !

لم تقو الجارية على إزاحة ضيق أصابها فجأة فقالت في غلّ.

- كانت قبل أن يسحروها يا أميري
- وكيف كان ذلك ؟.

ضربت بيدها أوتار العود

- أحتووها فلم يبق منها شيء

هفّ بيده وابتسم خفية

- أعرف أنك تخففين عني ..

تلاحقت النغمات وهى ترنو محدقة

- لا يا أميري .. اليوم ليس للضحك

وصمتت، وبان عليها الحرج، فأومأ لها الأمير ..

- لم تعد أميرتي سوى مصاصة جافة

أعتدل في أريكته ولاح عليه الغضب

- لولا أنك جاريتي الأثيرة لضربتك بالسوط
- ولولا أنك الأمير الحبيب ما بحتُ لك ..

حدقَّ فيها في قسوة .. تهدّل صدغه ومال كتفه .. نكس رأسه وهمس:-

- زديني يا جارية

قولي ما عندك

- أعطني الأمان يا أميري
- أنت آمنة .. وأنت تعرفين

نهضت الجارية واستقام عودها.

برقت عيناها، وانحنت، أخذته بين يديها وهمستْ

- خصيان القصر يا أميري .. فحول أقوياء.

انتفض الأمير ..

سقطت عمامته ..

صوب بصره تجاه الجناح واندفع.

***

حكت الجارية للخادم .. أن الأمير ظلَّ في الجناح زمنًا ثم خرج هو والأميرة ..

كان يتلويان على أيدي الفتيان المرد ..

.. هزَّ الخادم رأسه وواصل كنْسه ..

فمنذ أن اختفى الأمير لم تمتد يدٌ لإزالة المخلفات ... ولم يتنبه وهو يكنس أن عمامة الأمير كانت بين كومة المخلفات في طريقها إلى المحرقة.

## السَّمكةُ والأحْراش

أربدّ وجه النهر، وتلبَّد بالأحراش التي تكاثفت، ومشت على وجهه فسترته وأخفته، وحجبت عنه نور الشمس، وحركة البشر، فاحتْ الروائح العطنة من السيقان والأوراق والجذور والشعيرات الناعمة التي افترشت القاع وعطلت مسار الحركة، وتوقفت القوارب، وتعطلت المجاديف وبحثت النساء عن شواطئ خالية لغسل الملابس والأوعية "وتحميم" الصغار.

كانت الأسماك تتلاعب بزعانفها وتمرق في تحدٍّ، تنزلق إلى بقع المياه الخالية من النبات، وتصعِّر خدها، وتُبرق عينيها، وتتلوى في خيلاء، وهى مطمئنة .. فمن يقدر على صيد والماء حجب أحياءه وحماهم.

وكان الرجل الذي يجلس مع المرأة وابنتها قد غاظه أن يرى زهوها طافيًا ومترقرقًا، وقشرها الفضي يلاعب شعاع الشمس الباهت ويعكسه، وخياشيمها تنفتح للهواء وتمعن في مداعبته، والزعانف الراقصة كأنها أهدابٌ طويلة مزجَّجة.

وهبّ واقفًا، دبَّ قدمه، وطوح بيده.

رمق المرأة وأطال، وأمالت المرأة رأسها وانتظرتْ، طلب منها أن تأتي بالسنارة، رمتْ بشالها الداكن على رأسها وزامتْ، أغضبه رفضها

وصمتها، فتح فمه ليصرخ، لكنه أعاد إغلاقه، وضع كفّه عليه، فمن أين يأتي بالدود .. ليطعمه السّنارة ويخدع به السمك ؟.

مضى يدور، ويلف باحثًا عن شيء يصلحُ طعمًا، وجد ورقة علق بها الزيت وافترشها بقعًا داكنة، التقطها وانتحى جانبًا وأخذ، يبحث عن بقعة مياه خالية من الأحراش حتى وجدها.

مسك الشصّ، وتمتم عليه، كأنما يقرأ عليه "عزيمة" تفك النحس وتجلبُ الخير، كوّر الورقة، ودعكها حتى هرسها فبدت كقطعة العجين، تفل فيها، وبسمل ثم علقها بالشص.

تناهى إليه، وهو مستغرق – ضحكة ساخرة "فاستدار" – كان وجه المرأة مدهوشًا، ويكاد يحمل اتهامًا بالخبل، والبنت يتعالى ضحكها، وتدق الأرض بقدمها فتسوخ.

– الناس تقول عليك إيه !

وتميل البنت في دهشة وهمس

– الراجل .. اتخبْل.

وظلتا تحدِّقان فيه، والرجل يخوض في عطن الماء وعُشبه، وقدماه تعلقان بأحراش النبات والأعْشاب، وتمسك بجلده كالأهداب.

رفع رأسه وصاح عاليًا كي يصل صوته إليها.

– السمكة كالمرأة

أحكمت المرأة جلستها وحدقت فيه

– فجأة تنزلق بين أصابعكِ كجنية.

أدار رأسه، وقال في تساؤل

– هل لأنها ناعمة !

ابتسمت المرأة في شحَّة ورددت

– خِلْقِة ربنا ..

– كأنها تدهنه بالزَيت

ضجت البنت ضاحكة حتى كادت تقع

– هيَ قالت لك !

قال وهو يحكم الطّعم في السنارة ويطمئن عليه.

وتابع حديثه كأنما يهامس نفسه

– وتنافقها فتخدعها ..

هبتّ نافضة جلبابها مما علق به ثم زمته، فشدت جسدها وتحدد.

– وانت .. حتْنافق السمكة !

– سأخدعها .. الطعم جديد، وبرائحة الزيت.

وليونة العجين.

.. رمى بالسنارة وراح يشد ويجذب، يرخي ويرسل، يحوم ويدور، يخوض في الماء، ويسرع إلى اليابسة.

خبطت المرأة صدرها، واتكأت على ساقيها المفرودتين، بانت الدهشة في عينيها وهى ترى الزعانف ترتجف، وتتراقص تحت سطح الماء وفوقه، وتحوم حول الطعم.

والرجل يناور، ويحاور، ويخادع ..

كان يسعى في حرص واضح على أن تدرك السمكة أن ثمة رائحةً لزيتٍ تستخدمه المرأة في ترجيل الشَّعر وتزينه، وأنه لا يضن به على السمك الذي افتقد الطعم، والدود، والخبز، واللحم الفاسد.

ورأى السمكة المرقَّشة بالألوان تتلوى، وتغوص وتعلو.

كانت قشورها تضوي كبقع فضية لامعة، وفمها ينفتح وينغلق كأنها تتدرب على التنفس، والشصّ يعلو فوقها، وحولها وهو يداوم على المخادعة، وهى تحاول، أن تلاحقه، تصل إليه، وتقْتنصه ... ظلَّا في المناورة حتى كادتْ تيأس .. فجأة أرخى الرجل السنارة .. ومرقت في سرعة، حتى وصلتْ إليه، وابتلعتْه مرة واحدة.

تنهّد الرجل في راحة حقيقية وقال في زهو

– سمك زي الستات صحيح.

هاجس المرأة – خوفٌ منه، وقلق عليه .. وخافت أن يصيبه مكروه .. رأته مقعيًا أمام السمكة يحدِّق فيها، يشغله الفم، والعين، واللون الزاهي، ورجفة الجسد، وانسياباته.

أخذت قالبًا من الطوب ورمتْ به السمكة.

فاض الماء العكر وانساب من الحافة.

وطفتْ السمكة .. شهقت شهقة طويلة، أغلقت عينيها، وفتحت خيشومها للمرة الأخيرة .. وأغلقته، كانت كأنها تقول له أنظرني حين أودِّعك .. أقبل عليها وجلا .. وظل الماء يدور حولها ويحتدم .. يدور ويحتدم .. كأنما يقيم جنازًا لها ..

تنفست المرأة في عمق، تزيح حملًا ثقيلًا عن صدرها .. وسحبت يد البنت في حدة ومضت ..

وكان لا يزال قابعًا أمام السمكة يرنو إليها في ذهول.

.. وحين لم يجدها .. هرع مسرعًا .. وجذبها من طوقها .. وأجلسها أمام الحفرة، أمرها أن تخلع ملابسها .. وتنزل، فلعل السمكة حين تراها تغار وتعود إلى صورتها.

## صُعُود الدَّرج

كنتُ أمضي في طريقي، وكان هو يتقافز أمامي ويطوي الهواء، علَا صوتي حتى بدا صارخًا، ولم يتلفتْ، ضاع الصوت، رأيته موجات رهيفة تنداح وتسوخ في الصخر المدبب، وفجوات الرمل، وظل هو يرتفع .. ويعوم في غلالات الهواء الشهباء .. وكأنه يستند إلى وسادة من الغيْم ..

ما الذي جعله يفر – كالهارب، ولا يعيرني اهتمامًا، أو يتصيدني ببصره، وهو يشير إلى الجمع الغفير الذي يحتشد في الساحة البعيدة المحفوفة بنخلات باسقات فبدت كأنها ظلالٌ صلبة.

أكان يعلم أنهم اجتمعوا ليحكوا همومهم على حد التخوم بين السماء والأرض خشية أن يترصدهم العسس، وأنهم حين رأوه انجذبوا إليه، وراحت عيونهم تلاحقه فصكوا وجوههم وأغلقوا الفم، فما فائدة أن يعيدوا القول بأنهم فرطوا في الرمل وباعوه حرزات جميلات وودعًا مفزعًا يتحلَّى بها صدر الغيد الحسان.

حمضت عناقيد الغضب وسقطتْ ..

صعدتْ تلًا راح يسوخ تحت قدميّ فأرهقني الصوت

جارت في قوة وقلت له كالمبتهل ..

أتيت بي .. وتركتني

رأيته وجهًا مفروشًا على مساحة الفراغ فلوحتُ موجعًا.

- ناديتني .. فتبعتُك ..

سمعتُ ضحكة ساحتْ على وجه السماء فأنارت التلال والجبال واهتزت لها ظلال النخيل، وتحركتْ شفتاه في خفقة موصولة فاهتزت العيون الرانية

- من جعلك تتبعني ؟
- أنتَ .. قلتَ .. فلبيتُ.

وبدا كأنما يلملم الأحرف المبعثرة، وكفَّاه تنفردان، وتلاحقان الحرف، والنقطة، والخط المائل، سترها في كفه، ثم فردها فتبعثرت قبل أن يتوارى كلية، حملتْها ذؤابات الريح ونثرها حتى وقفت في صلابة في صلابة على الرءوس ..

- من يتَّبع .. يسقط.

درتُ في المكان فوق خط التَّماس، والنخلة الباسقة ممتلئة العراجين، تتدلى سعفاها بين جدر ملساء في نعومة الهواء .. مددت يدي علَّني استخلص سعفة فساخت في بلولة ناشعة، ارتعبت، فارتعدتُ، وهمهمت هامسًا وناعبًا ..

– أتى بي .. وولّى

رددْت الهمسَ السعفاتُ الذاهلات، ورمتْ به إلى الهواء، فبدده، ظللت ألف .. وأدور وصوتي غائر لا يبين.

.. انسلّ كشفرة الضوء.

***

وكأنني هويتُ من حالق ..

وكأنني كنتُ معلَّقًا بمخالب هذا الذي اصطادني ثم نأى .. ورأيتني في سقطة هاوية، كأنني في حفرة بدت كفجوة مسطحة حوافها مهدمة .. وأنا حائر كجُرذ ..

كان الجبل على يميني شاهقًا أملس كجدار من الجرانيت ضارب بعروق بيضاء، جبل صلد، وناعمٌ، ومتأبٌ، حاولت تسلقه، أو التحرك فوقه، أو الصعود على نواتئه المدببة .. فعجزت، كان عاليًا وشامخًا كأنه يطاول السماء ويدخل فيها، وسرت محاذيًا له.

لم أتوقف كثيرًا أمام سرسوب الماء الذي ينزُّ في خيط أبيض موصول كأنه قطرات رهيفة مندمجة .. ولا أوراق الصبار بإبرها الحادة، أو حراشيف الأشجار الجافة .. وظللت أخب في سيري .. حريصًا على الملامسة مع الجرانيت الأملس .. والتقطني عُنوة ..

الوجه المستدير الأبيض كرغوة الماء .. التقطني.

مدّ هُدبه كالشبك وعلقني ..

تخايَلتْ على ملامحه أبهاء اللون .. الأحمر على الخد، والفستقي على الجفون، وحواف الشفة، وتأبى الشعر فانسل كسبائط الصفصافة ..

وندتْ عنى آهة مدهوشة .. ما الذي أتى به في هذه البرية، التي لا ترى فيها غير مدقات الرمل، والصخور المبثوثة والوهاد التي على مدى الشوف .. وهذا الذي كالجدار الناعم .. خطرتُ في ذعر وشوقي إلى الوجه والجسد يحركني ويأخذني.

لعل العصافير أقدمت على مرآها فراحت تبث غناءها، فاهتزت سعفات قليلات وأرجفت، وشعرتُ برنات موقعة، كأن الفضاء يرسلها إلىّ .. قلت في نفسي: لو أستطيع أن أغتسل .. لأتهيأ .. وتقدمتُ وبي فضول داهم يستدرجني وأجاهد عيني كي لا تغمض.

وقلت: أرتْقبها، ثم أسألها، وكان الوجه يتجلى ويفيض وكنت كلما حاولت أن أنزل ببصري المندهش إلى الجسد أعجز فلا أرى سوى الوجه.

وأقتربتُ.

وكأنني أخطو على معبر سخي تسوخ فيه قدماي، وثمة ساتر لا يحجب سترًا، وأنا أبدو كالمنوَّم يرنو إلى الوجه ..

وقلت أقترب ..

وكنت أخلع القدم في جَهْد، وبدوت كالمغلول، وجاءني صوتٌ مدغوم الحروف.

- لا تقترب

وبيني وبين سرسوب الماء الذي يندفق في رشات تشبه غيمة منثورة .. مساحة من سخاء رطب يشدني

- وإن اقتربت
- احترقت

ولاح الأمر كالذهول والفضول يجتاحني

- بالماء أحترق !
- بل به تحترق.

وارتجف الوجه في سماحة، وافتر الثغر عن بسمة زاخرة بالحياة وبثنايا بيضاء مصفوفة في صفات الماء .. وكأن الوجه يكاد يهجر الجسد، ويزمع الرحيل فقلت متوسلًا

- خذيني معكِ
- لم يحن موعدك
- أنا الآن مضيَّع

وعكستُ لها، منّي .. شكوى تسللت من داخلي

سلّني هذا الذي صعد عاليًا وتركني

- عليك أن تمضي
- إلى أين .. المكان واحد ومشتبه !

وبقيتُ على حالي، وشعور بحنان يتسرب إليَّ

- عليك باليمين .. ثم اخطُ ..

قلتُ في نفسي أخطو . فخطوت .. ففرَّ بعيدًا .. وصافرًا بفمه .. كأنه هواء محبوس.

***

رأيت الجبل الأملس كأنه جسر ممتد، ينحدر في انحناءة قوية إلى هوة سحيقة، ثم يتمدد في طرفه، ويلمس في استقامة وادعة الجرف الآخر من المكان .. ولاح كشاطئ تقافزتْ فوقه خرزات ملونة.

واستعصى الأمر عليّ، وتساءلتُ في أسى حقيقي .. كيف أصل إلى الجانب الآخر الذي يبدو كشاطئ مدفوس في بركة – كالهوة – من رشات سرسوب المياه .. وليس بي طاقة تسعفني، ولا متكئات للطفو ؟!.

طان عليّ أن أجد منفذًا ..

ودرْت في المكان، كأنني اتخبط، ولم أعد متأكدًا من اتجاه الحركة أهى في اليمين .. أو في اليسار .. غطشت الرؤية وتبدَّى الفضاء معتمًا، ولم يبق في حدود الرؤية إلا خط رمادي يربط بين الهوّة والشاطئ.

وبدوت كأنني أتدلَّى كثمرة عجراء.

ليس هناك من أنيس يألفني، أو يأخذ بيدي، أو يرسل إشارة، وألوّح بيدي .. وأتقافز وأنا راكز فوق إفريز جبلي، صخوره ناتئة مدببة، لا أكاد أقوى على الوقوف أو الخطو.

وتوقفت أمام الصخور المدببة التي تعجزني عن الوقوف، وبحثت عن النعومة الملساء التي كانت تكسوه، فلم أجد، ورفعت رأسي وأرسلت بصري إلى الفضاء الرمادي رانيًا وممعنًا، ولساني يردد في همس لا يبين ينبئ عن عجز وحيرة.

- هل كتبَ عليّ العجز ... في النعومة والخشونة معًا ؟!.

ودنوت ..

وتدليت

فاقتربت

وتحدد أمامي منعطف بدأ يتكشف خيطًا رهيفًا كشعاع قمري، وأسرعت أغري نفسي أن تقبض عليه، ولا تُفرِّط فيه، فمن يدري، لعل الوجه الذي خايلني .. أرسله، كي أصعد فوقه .. أو لعله يتخفى وراءه ليرى ماذا أفعل ! .. ودبت الفرحة في قلبي .. حتى خفت عليه من الخفق المداوم .. وغشيني ضوء كالنور

أرهفني الفرح فكدت أتساقط، اهتززت لولا ثقل في القدم ثبتني وأحكمت وقوفي، وشددت جذعي، ورفعت رأسي .. كأنني أهيأ .. ثم لاح لي بعد برهة أن الفضاء كقماشة ذات خطوط متوازية، وسميكة، وبنية اللون، وتراءت لي كما لو كانت درجات سلم من الحديد الصدئ .. والمفرغ ..

.. وهللتُ ..

وأحسست بخفة، وبسكينة، كالنشوة تكاد تعلُو بي

.. وهللتُ ..

أهى الدرجات التي تقودني ؟ ..

سأرتقي إذن وأصعد .. سأمد يدي في المدى وألتقط الثمرة التي وعدتني بها ذلك الذي سلَّني ومضى ..

ترى .. أية ثمرة هذه .. تستحق كل هذا العناء وذاك التيه !

ورفرفتْ ذراعي كجناحي يمامة تهدلا في فرح الولادة .. ومضيت أجتاز الدرج .. والنور يفيض ويغمر المكان .. وغمرني .. وكنت أسمع ترجيعًا كالغناء .. وكأن بنات الحور تسجع لي ..

.. وعلى الدرجة الأخيرة تسمرت قدماي .. كأن جنّيًا دقَّها بمسمار .. ظللت واقفًا اتأرجح ..

وأمد يديَّ إلى الفراغ فأقبض على الهواء.

تطوحتُ، عامدًا تطوحت، لعلني أسقط، فاسْتمسك القدم بالدرج ..

رحت أتلهى .. وأتطلع إلى الثمرة .. فأدركت أن بُعدًا مهيبًا يفصلني، وأن الدرجات التي قطعها لا تكفي للوصول ..

رفعت رأسي متطلعًا .. ورحتُ أنتظر.

## عُبُور التَّل

فتح النافذة وأطل، عبرتْ عينه المسافة الضيقة بين البنايتين واستقرت فوق المسكن المواجه، شعر بسكون يصل إليه، ويطرد الأصوات الزاعقة التي تعودّها، وانطفأت حركات صاخبة كانت تصك المسامع، راح يدور حول الفتحات التي تطل على البناية من أطرافها وتكشف أبعادها.

لاحتْ له الشقة مفتوحة النوافذ، وخالية من الأثاث الذي تعوَّد رؤيته .. كانت مجردة من كل شيء، لاح له تراكم الغبار في الأركان كندف قطن رمادية .. وتعجب مما يراه، كأنه في منام، فالأطفال يدخلون من الباب المفتوح على مصراعيه، ويلعبون بالكرة في البهّو المستطيل.

غمره وجع مفاجئ وتساءل في دهشة: هل حدث شيء ؟ هل أخذتْ السيدة عفشها "ليلًا" ورحلتْ ! إنها تنسل في هوادة تدعو إلى الريب ! وكأن الأمر لا يستغرق وقتًا !

وخلع نفسه وعينه تحدق في المسكن وراح يدمدم في تمتمة .. أيأتي اليوم الذي لا يراها فيه، تقف أمام مرآتها، تتحسس برودتها، وتضع خدها على زجاجها البارد !.. وهل ستحرمه متعة أن يراها تضطجع على سريرها الأبيض بملاءته المطرزة بالوردات .. وتتكئ على مرفقها وترنو إلى راديو

صغير، تستمع منه إلى موسيقى هادئة، وجفناها يرجفان، وأهدابها تتلاحقان في خفقات موصولة.

وكيف تقوي نفسه على افتقاد رؤيتها، وهي في كامل هيئتها، وهي تلاصق طاولة الطعام وتتناول وجباتها في رهافة خالصة كأن أصابعها لا تنقبض على شيء.

.. كان يراها ترمقه خفية، ونبضات الضوء تنبعث في الفتحات كأنها صهد الأجساد فتصل إليها .. فتبتسم بسمة رائقة لايزول تأثيرها سريعًا، بل تبقى ظلالها عالقة بالشفتين، وبالثنايا البيض، وضحكة العين، وكانت تبدو وكأنها تقول أنها تعرف، وأنها تحب ذلك. وأن طلاته تسعدها.

أكانت تنتظره كل يوم ليشاهد الطقس الذي لا يتغير !

لا ينسى – وهو يراها تصعد السلالم – الألم الذي يطل من عينيها، وحالة اللوم التي تفضحها العيون حين يحتجب عنها قليلًا لعمل أو لسفر .. وكان يبتسم ويأخذه الحياء فلا ينتبه إلى أنها كانت تستند على قوائم السلم بقوة، وبثقل جسد تنبئ حركته عن إنهاك واضح.

***

في الصباح صعد متعجلًا، بيده الصحيفة .. وطعام الإفطار .. على بسطة السلم تلكأ قليلًا وادّعى تعبًا، وراح صدره يعلو ويهبط، وبدا أنه يتنفس في صعوبة .. وصله حديث النسوة عبر الأبواب المواربة .. يعرفن حياءه .. فلا يعملن حسابًا له ..

- تركت السيدة الشقة لتعالج عينيها

وردتْ السمينة ..

- ستذهب إلى المستشفى

مسحت عجوز عينيها بطرف إصبعها وقالت في نبرة حزن

- أدركتها أختها .. تكاد لا ترى

طفرتْ دمعة فالتقطتها بطرف كمها

- اشتكت أختها من ملاصقتها للمرأة وفحص عينيها والتدقيق في "الننّ".

هدج صوت زوجة المالك الصغيرة، وكانت موضع سرها

- كانت ترمي بوجهها عليها وتنتحب

وتمتمت في أسى وهى تردد ما كانت همس به

- ماذا جرى لك يا فكيهة !

.. ارتعش بدنه واهتز .. وتوجع قلبه .. وهو يراها – الآن – تحيط بالمرآة، وتقترب من الشباك، وتطل منه في تحديق منظم .. كيف لم ينتبه ؟..

خبط بقدمه الأرض .. فطلت الوجوه، وحدقتْ، وصبت عيونها عليه رانية، وهو يطوي الدرج في قفزتين.

***

رأيتُني مهمومًا، ووحيدًا، وعلى كتفي عباءةٌ مخَططة، بمساحة رأس النمر، وأنيابه تطل من النسيج الغليظ في تكشيرة، لاتخال عليّ، في حين احتجبت أظفاره واختفت أصابعه، ورحتُ أمشي الهويني ..

ورأيتها .. كانت تسير أمامي .. تقدمتُ وحاذيتها، ثم تجاوزتها، كانت تتكئ على قدمين واهنتين، وكنتُ أسمع تكسُّرات الكلأ تحت ضغطها الثقيل.

بدا السهل متدرجًا فصعدت، ظللت أصعد حتى صرتُ فوق التلّ المكسوّ بعشب صغير كالهدف، وراعني العُرى الذي ساد المكان، والماء الذي راح يعلو حتى أحاط بالأجساد، وغمرها، حدقتني العيون والعباءة على كتفي تغمرني وأطرافها تلمس المياه، والبسمات الرائقة تعلو الوجوه وتترقرق.

وكان الصغار يضجون بالضحك ..

وكأن مقذوفًا أصاب الماء المختزن فراح ينسل في سرسوب دقيق ورهيف، وراحت النخيلات الباسقات تتمايل، وحواف الكلأ تهتز وتتداخل.

واجتزت المكان .. في دفعة واحدة.

وأنا أجتاز التل علوتُ حتى بتُّ أرى التل من جوانبه، ولمحتُها تتكئ على مرفقيها، وتجاهد وهى تطل على صفحة المياه، التي تجمعت وتقترب، وتميل بوجهها وتلامس السطح، وعيناها تحدقان في ثبات لا يريم.

فجأة تلاطم الموج واختل الطين بالرمل وانسدت الثقوب والفجوات فعلًا الماء رابيًا وساد كلّ شيء، وأخذ معه صورة الوجه والعين المحدقة، وقبل أن ينطوي، شملني الوجه بعينين صافيتين ..

أكانت هى نفسها التي كانت تتكئ على قدمين واهيتين، وتشير إلىّ في حياد رؤية، وبسمة مقصودة.

***

تراكمت اللجَّة الرابية، وعلا الزبد، وتكونت دمامات مكتومة، وانفجرت في دوائر لامعة، بيضاء وداكنة.

ورأيتني .. الماء يحتويني، يلفني، ويغمرني، ثم يطويني، كاد الغرق يلحق بي ويمد قبضته ويعصرني، ضربت الماء بذراعي، وفردت عباءتي فبدت كالبساط يتز بالماء .. وكلما ضربت الماء، امتد ساقي وانفرد وأجبر الماء أن ينغلق، فحملني على سطحه، وأغلق مسامه وتماسك.

ما الذي جعل العباءة صلبةً كأنها أديم الأرض ؟ منْ فردها وخلَّصها من غمرْ الماء، ومسك أطرافها وطارها ؟ منْ كان وراء نجوتي .. فأحيا النَّمر، فكشر عن أنيابه فأجبر الماء أن ينْحسر فأنجو ؟

جلستُ على نتوء صخري قريبًا من الحافة، وقدماي تلامسان الماء، ويداي تقبضان على العباءة، وتفردانها في عين الشمس، والأطفال الصغار كأنهم بلباس البحر، يلهون، يتطارحون حول النخيل وفوق الكلأ، وحبات الرمال المدببة تفر من بين أصابعهم في لهْو جميل.

طيَّرتُ فؤادي يطوف حولهم .. فانجذبت إليهم .. شدوني بأمْراس دافئة، ورحتُ ألهو .. أقعيتُ فوق الرمل والعشب وفردت عباءتي ورحتُ أضع، الخرزات والقواقع، وسعف النخيل، وأوراقًا من النبق والسِّدْر .. وجمعْت ضحكات الأطفال وأودعتها عباءتي .. ثم لملمتُها .. ومضيت.

***

هيأ نفسه لصعود التل مرة أخرى

إذ لا طريق غيره للوصول إلى المقر.

## قَبْوُ النَّار

.. في خلسة الكرى أراها تمد يدها إليَّ، وأُطل في عينيها فألمح استجداءً كالشحاذة، وتهدُّلًا على الصدر لا يُخفي شيئًا، وعرْيًا واضحًا للفخْذين ..

أتعجبُ من اليد الممدودة وهى تتلوى، وتبدو كقطع اللحم الحمراء .. المشوية.

يُواجهني الوجه المحترق بلهيب النار، ملامحه تضج بألم مُمض.

بدا المشهد في غاية القسوة، واللهب يهبُّ من أطرافها ولا يكاد يتوقف، والهلع الشديد الذي أراه في عينيها سكب الخوف في عينيّ، وتجمدتُ حائرًا وهى تجْأر بالصراخ .. وأنا عاجز عن تخفيف آلامها.

أحاول – في مجاهدة – أن أتوهم الشكل وأستدعي الهيئة ..

أتكون هى ؟ .. لكنها ماتتْ من زمن بعيد.

منْ أخرجها من قبْرها لتمد يدها الحمراء، وتُناشدني أنْ أساعدهَا .. وأنقذَها من اللهب !.. هل جاءها خبر أنني في زيارة للَّنبي فهبَّتْ من نومتها الأبديَّة تطلب منّي الدعاء أو أهبها عمرةً فلعلها تخفّف ما هى فيه!

.. شدتْني بأمْراس قوية .. فلم أعدْ أطبقْ العين.

شفتاها الحمروان .. المدممَّتان .. تتفرجان عن همسة لا تبين

– خُذْ بيدي

ياربي .. أتكون هى ؟

هذه المسْتلقيةُ على الأرض الخارجةُ منْ قَبْو النار، الحابيةُ على ركبتيها، المادَّة يدها المسلوخة .. أتكون هى ؟!

منْ الذي أخرجها، وجذبها إلى سطح الأرض وأغرقها في النار ؟ .. وهى العابدةُ، والمصلّيةُ، والتي يُضرب بها المثل في الزهْد والمكاشَفة ..

لعلَّها هى !!

** – كنتُ زميلًا لولدها، صادقْته زمنًا، وتلازمْنا .. وكنتُ حين أذهب إليه أجدها في غرفتها تبدّل ثيابها وتطلّ في مرآتها، وتمشّط شعرها .. حتى احترتُ في أمرها، وتصورت أنها لا تكاد تجد وقتًا للصلاة.

أدهشني ولعُها بجسدها وهى تُبسط كفَّها عليه، وتتوقف عند مناطق تُمعن الضغْط عليها، ثم تُفْلت – كالعمْد – آهةً ممطوطة تظل

– خطرت على بالي.

وتمدّ يدها، فأمد يدي وأنا أكاد أذُوب حياءً يُقيّد نظْرتي ومسَارَ عَيْني، وتقبض على يدي، وتتملّى وجْهي، ثم تَفرْك خدّي بإصبعيْها

– ليت ولدي خجولًا مثلك

.. كان ولدها يحب اللهو، والممارحة، وكرة القدم، ونادرًا ما أجدُه في البيت.

.. ينْبسط كفَّها على رأسي، تتخلل أصابعها شعري الملبّد وتجذبني إلى حضْنها وتقول.

– ألا تطْعمك امرأة أبيك ؟ ..

وأشعر بفرائضي ترتعد وهى تضْغطني، ورأسي تطول صدْرها الباذخ، وأعضاؤها تثْقلني، فأترك جسدي كله .. كأنه ليس مني.

.. وتأخذني من يدي كطفل صغير– وأنا المقيَّد في الصف الأول الإعدادي – وتُجْلسني بجوارها على الكنبة "الاستامبولي".

وتطالبني أن أنظر في عينيْها .. فأنظر في عينيها .. وأرتجف.

– عيني كبحيرة الماء.

أرمقُها، فتشجعْني، وأنا أجهل كيف تكون العين كالبحيرة ؟!..

كدتُ أبتسم فوأدتُ بسْمتي، شجعتْني أن أنظر، وأتأمل، ولَّما طاوعتْني عيني لمحتُ ثوبها ينْحسر، وبدا كأن يدًا خفيَّة تسحبه في خِفْية .. حتى اضطررتُ إلى إغْضاء بصري.

وحين ضحكتْ في مماطلة هوَيْتُ به عليها فهمستْ

– أوجعت بدني

واحترتُ كيف أرد، فظللتْ رانيًا إلى صدْرها

.. وفجأة زامت في هَويمة كما تزوُم قطة حين ترى قطًّا يقاربها.

.. باغتتْني رعدة هزتْني، وطافتْ بذهني لامعةً كالبرق صورةُ أبي وهو واقفٌ على عتبة الباب يدقُّه بعصاه.

نترتُ نفسي مرتجفًا وأنا أنظر حوا ليّ ، رامحًا نحو الباب وأنا أردد .. أبي .. وتضحك في إمالة صوْت منغَّم.

– أبوك في طنطا

وأندهش .. كيف تعرف بسفر أبي وأنا أجْهله، ولَم تزاحُمني صورتُه كأنني أراه عيانًا ؟؟

.. وتُسقيني شرابًا بطعْم العنَّاب وتأخُذني صاعدةً بي إلى السطح أساعدها في تَبْييت الدجاج، وقبل أن تطْلقني أكون قد أكلت بيْضَتين وأخذتُ تعريفة وملبّسة،

وتمتد يدها، وتفرك أذني

– أقْطعها لو حكيت لأحد ..

وهْتَز ضاحكة ..

– غدًا في العصْر تعال لتأكل المشلْتت مع صاحبك

.. وحين آتي في موعدي، أراها تنهْض عنْ سجَّادتها، وتتملَّي نفسها في المرآة .. ولا أجدُ صاحبي.

ظللت أتردد عليها حتى وجدتُ يومًا بصحْن العصرْ، أخبرتْني أنه سيتزوَّجها على كتاب الله وسنة رسوله.

وقبل أن تُغْلق الباب ورائي حذَّرتْني من المجيء مرة أخرى ..

** غامت الدنيا في عيني، وراحتْ تلاطمني ..

كنت معها أشعر بالحياة، وبأن أحدًا يتلهف عليّ .. وكان شعوري نحوها خليطًا بين الأمومة وبكارة الصّبا.

.. لزمُت الدار لا أخرج ولا أكاد أطعم شيئًا ..

وحفظْت سرّي وقبْرته داخلي.

وها هو يعود حين عادت من قبْو نارها في خلسة الكرى ..

بوجهها المسْلوخ .. ويدها المحْترقة .. فنكأَت السّرُداب المملوء بالخوف .. والجلد المحْترق يتبَّدى أمامي ويَجْلدني.

## الوجْه المدبَّب

هلتْ عليه فاتحةَ ذراعيها فاحتضنها وأبقاها في صدره،
تحسس في رهافة .. الرأسَ والشعرَ ورنا إلى عينيها
الواسعتين وهدْبها الأسمر الطويل، تملَّى بؤبؤها العسلي
وفاضت على وجهها الأبيض نمنمات من حبه الدافئ

كانت الأم تنظر إليه ممتعضة، تدليل البنت حتى لا يستعصي الأمر، طالبتْه أن يخفف قليلًا من في غيابه، وكان يرمقها ويصمت فكيف له أن يخفي فرحته من هلّة البنت وطلّتها ؟ .. ينحسر الوهج الذي تفيض به عيناه ويغمر البنت عند حافة الوجه المدبب ثم ينطفئ .. يأكلها قلبها وهى تضبط نفسها واقعة تحت غيْرة بادية ويروح إصبعها يضغط جلدة وجهها المدبب.

.. راح يضاحك البنت.

– اليوم فرحت مني المدرّسة

قال مبتسمًا وإصبعه يتلاعب أمام عينيها

– إيه .. السبب.

طومت كفيَّها في صدره

– أعجبها خطيّ

ونترت نفسها .. جذبت الحقيبة وأخرجت كراسة الخط، وضَعت إصبعها أمام ملاحظة مدرستها، نظر إلى الأم وقرأ بصوت عالٍ.

"خطك جميل وموهبتك تحتاج إلى رعاية"

وحين لاحظت على أبيها رضًا لا يخفى عليها، وفرحًا يسيل من عينيه، بدتْ جادة وهى تفرد إصبعها في مواجهته

– طلبت المدرّسة علبة أقلام ملونة

– تلونون بها الخطوط !

تملّت في وجهه قليلًا ثم ضحكت، ومدت صوتها كأنها تصحح له

– لحصص الرسم !

كان قد لاحظ على البنت اهتمامًا بتكوين الأشكال، والصور، والخطوط .. به ضعف أمام الرسوم، كان يحب الفنون يومًا ما، يرتاد معارضها، ويقرأ لروادها وأعلامها .. لكن رغبته انحسرت وطال الوقت حتى أضحى كالقطيعة، فهل تعيده البنت مرة أخرى إلى هذا العالم المليء بالظلال .. والرؤى .. وفيض الألوان !

وازدهى الوجه بالنور والظلال ورأى فيه بذرة تنفض عنه وجه الأرض وتعيد له بهاءه كي ينطلق ..

كان حلمه بسيطًا، أن يقرأ، ويشاهد، ويحس .. وأن يحمي كنزه من غوائل الزمن .. لكنه – بعد أن كابد – لم يكن يدري أن الدنيا بأمورها

اليومية قادرة على خطف المتر ووأد الرغبة .. وقنع بما هو عليه .. فهل يمكن أن تعيده البنت إلى خيال بدا باهتًا !

أخذته رجفة مفاجئة أخرجته من سكون طارئ .. وصوتها يعلن عن غضبة قادمة.

كانت تقلب بين يديها قشرة من الطلاء سقطت على المقعد وتفتَّتْ

– الشقة تحتاجْ دهانْ جديدْ

التزم صمتًا درَّب نفسه عليه، وناول البنت كراسة الخط وقال في تمتمة

– إن شاء الله

هبت البنت وقالت في زعقة عالية

– متى !

في الوقت نفسه تساءلت الأم متهكمة

– متى !

نظرت الأم إلى البنت فحملت حقيبتها ودخلت إلى الحجرة

– الجدران باهتة ..

– الشقة جديدة ..

ونهض ..

فقد الطلاء لمعانه .. وساد اللون الرمادي .. أطلت على وجهها في المرآة وتأففَّت، خرجت منها تنهيدة مخطوفة، وحياتُها تطل عليها باهتة كالجدران التي تخلت عن بريقها .. "وهل يدوم الحال"، دفست إصبعها في صدرها كأنما تنهر صوتًا يود لو ينفلت "نعم يدوم".

مرق في بطء تجاه الثلاجة

– تحتاج الجدران إلى تنظيف

تجرع قليلًا من الماء

– الغبار تراكم بطول السنين

أغلق الباب وقال دون أن ينظر إليها

– والرطوبة غيرتْ اللون ..

حدقت فيه مليًّا وشفتاها ترتجفان

– أبعد هذه الحجج

دارت حول المقاعد كأنما تداري ما تنوء به من غيظ

– غيرك يغير عفش الشقة كل فترة.

مسحت بكفها ملمس الجدار، وواجهته بعينين لائمتين

– ألا يغيظك اللون الواحد والعفش الواحد

كل هذه السنين !

كل هذه السنين !!

غاصت في قلبه وساخت كمُدية .. مرَّ على الزواج عشر سنوات كوامل.

استنفد ما لديه من مال .. عشر سنوات مضت ثقيلة .. ومملة.

ما الذي جعله وهو يقدم على الارتباط أن يتجاهل ما تراءى له !

كيف لم يهتم بتطلعها .. ولِمَ أهمل ادعاءها وأحلامها التي باحت بها أمامه .. الشقة الرَّحْبة، والعربة الصغيرة، ورحلة الصيف والشتاء .. أين غاب عقله وقتها ؟ .. وكيف يتناسى الوجه الجامد وهو يحادثها عن جمال الرضى، ومسئولية الزواج، والبعد عن المعايرة بالآخرين ..

كيف رمح وراءها .. والمسافة بينهما تمتد حتى كأنهما يقفان على الطرف المواجه !

في المساء الموغل .. طالبته بزيادة مصروف البيت، وألَّا يضع يده في ماء بارد .. فالأسعار تشتعل، والأعباء تتجدد، وأنت تغرق في أحلامك وتظن أن الزمن توقف، وأسعار اليوم، ستبقى كما هى أسعار الأمس.

كانت النظرة تشي بغلّ كامن، هاله أن تحمل العين كلَّ هذا التبرُّم .. أيكون مدخلًا إلى الكراهية !..

التحديق، الوميض الضوئي الذي يخترقه، زمه الشفاه ارتعاشة جلد الرقبة، تقلص الكف، التواء الأصابع الممدودة .. وهذا الاهمال المقصود ..

انسحبتْ مهرولة وهى تقبض على حمالة قميصها الرمادي .. دخلت إلى حجرة البنت وأغلقت الباب .. وداهمه حزن يقبض عليه .. وراوده النوم عصيًا ..

في خلسات الكرى جاءه الوجه غريبًا، موحشًا، يتخايل كأنه وجه قطة رمادية، فاقع لونها ..

وراح صدره ينقبض .. وهو يدفع عن وجهه الكفّ المدبب والناب الحاد.

## أمَامَ المقَام

وهو ينهض من فراشه صباحًا شعر بجسده يؤلمه، وأن عظامه تكاد تنكسر، أرجع الأمر إلى القلقالذي ينتابه في نومه، أدار رأسه وتَّمطى، سقطت عيناه على المرآة فرأى وجهه مجهدًا، ملامح متهدلة وصفرة تكاد تصقل جلده، يزداد شعوره بالألم هذه الأيام، يباغته مصحوبًا بسخونة وبهمود يقعده عن الحركة التي اعتادها، لاحظ الأهل عليه توترًا، وانزواءًا، وشرودًا،

وهاجسه خاطر أن أن المسكن يطبق عليه، وأنه يرى في نومه كأن سردابًا يتخفى تحته يمتلئ ظلمة وحشرات هائمة ..

استقام أمام المرآة وحدَّق ممعنًا، رآه باهتًا خاليًا من الحيوية التي تعودها فيه، الجفن منتفخ، العين متورمة، والنظرة كابية كأن العين تود حجبها .. ورنا في دهشة، أهذا وجهه ؟..

وهو يتجول فوق الوجه سقطت عيناه فجأة أسفل الرقبة، كانت الكف تمشي على الرقبة وتمسّد جلدها، أوقفت حركتها بروز ممتد، ذهل، وارتجف، قاس طوله وحجمه، شعر به صلبًا لا يستجيب لضغطة الكف، ولا يصدر ألمًا.

وداهمه القلق ..

انْهى اغتساله، ووضوءه وخرج.

ضبط نفسه واقعًا في خشوع حقيقي .. كانت بعض قطرات الماء لا تزال عالقة بشعره المنفلت من طاقيته البيضاء وهو يرفع يديه داخلًا في الصلاة، كان يغالب هواه وهو يضع البسملة على شفتيه ويقترب من بهو الفاتحة، لم يقو على تنحية الشعور بالضعف الذي يعتريه، ثمة وجل حقيقي يتسرب إليه ..

دخل في الصلاة، وهدج صوته، شمله السكون وغشيته السكينة ولفه صمت كأنه قماط.

كانت الشفتان مزمومتين، واللسان لصْق الحلق، فناب عنه القلب في أداء الصلاة .. حتى كاد يشعر به يردد الفاتحة ويرتل الآيات.

شغله التنميل الذي راح يرعشه .. ويسري في الجسد حتى أرهقه وخشى أن يخرجه من الصلاة .. ماذا يحدث للجسد ؟ .. كأنه مقدم على حاجز يعترضه فاصطدم به وسقط مكوَّمًا أسفله.

جاء صوتها وهو جالس للتشهد تخبره أن الطعام على السفرة .. وصله الصوت مصحوبًا برنّة حادة وخزتْه كسنّ الإبرة، وشعر – في التو – بوخزة أسفل الرقبة، تعجب من توافق الوخز، فأنهى صلاته ونهض.

وجد يده تتحسس النتوء الصلب الممتد، لحته وهو يمعن النظر ولم تعلق، ثم رمقته بإهمال، وهى تعصر الليمون على طبق الفول بالزيت الحار.

بدا إصبعاها ككلابتين، وعيناها تنغرزان في الليمونة وهى تمعن في سحقتها ثم تتنهد ويسترخي صدرها كأنما أزاحتْ حملًا يضغط عليها.

ظلت أصابعه تتحسس النتوء، يضعها ويرفعها، ونفْسه عازفة عن الطعام.

تساءلت وهى تقضم البيضة

- مالك !

أخبرها بالأمر وزاد أنه منقبض الصدر، أمعنت النظر وقالت في همهمة

- الأمر عادي .. دمّل تحت الجلد
- لكني أشعر بسخونة غير عادية
- وأمر طبيعي

عافت نفسه الطعام .. ونهض

قالت وهى تتابعه

- تعمل من الحبّة .. قُبة

وزامت في صوت كالمواء

– ماذا لو حملت وولدت

تلفت ممتعضًا .. فانكبت على السفرة تحمل الطعام والآنية.

***

وكأنه مسوق إلى فعل قدري رمى حمله على خالقه.

أيقن أن الأمر يقتضي زيارةً للطبيب المختص، بينه وبين الأطباء مساحة من الحياد البارد، لكن إحساسًا يكمن داخله يُشعره بحاجته إلى المؤازرة.

كان يتخذ قراره بمفرده، فمنذ أن ابتعد عن بلده طلبًا للعلم والمسافة تمتد وتطول، وتنبهم معالمها، أوقعه اليتم المبكر في عزلة مؤلمة .. وظل يستشعر عالمًا لم يحسه .. الأم .. الدوحة، والغيمة، وصدر الحنان "والعزوة" الكاملة، ومع وجود الأب تشعب التنائي وطال.

حين قرر الطبيب الشهير أثناء دراسته بالجامعة ضرورة استئصال اللوزتين أقدم بلا تردد، ودون أن يخبر أحدًا من الأهل .. فمستشفى الطلبة ستحل مشاكله وتنوب عن الأهل.

وظل لابدًا في أعماقه إحساس بالخجل فاض عليه واحتواه وهو يرى نفسه وحيدًا .. ومنفردًا .. أكُل هؤلاء يأتون لمرضاهم وأنت بمفردك على سريرك لا يعودك سوى صديقك الذي يلازمك مسكنك ؟!

.. وقف أمام منفذ التذاكر وسأل عن الجَّراح وأخذ التذكرة وانتظر.

كانت المستشفى في هذا الوقت من الصباح ساكنة، يلوح عليها مسحة من البهاء، فآنس خيرًا.

قابل الطبيب، وأخذه ذهول لم يتوقعه .. أهى الحقيقة المباغتة التي ستواجه مراوغات النفس وخداعها ؟

كاد قلبه يبلغ الحلقوم والطبيب يتحسس الورم ويمشي بأصباعه على الرقبة، يفحصها، عيناه كانتا تحطان على فراغ أبيض وهمومان، وتصلّيان في همس يتجسد

زم شفتيه وقال دفعة واحدة

– ورم صلب وفي الجانب الأيسر

قال في نبرة فيها خوف ورجاء

– هل يختلف لو كان في الأيمن ؟

– نعم.

وهزّ الطبيب رأسه وقال في حسم

– يجب استئصاله وتحليله.

ومثلما فعل في مستشفى الطلبة فعل.

حين عاد إليه الوعي كان الألم يقبض على أعصاب الرقبة، فلا يقوى على الحركة، اضطر إلى استدعاء الأهل والأبناء، كان قد تصور أنه قادر على العودة بمفرده .. لكنه عجز.

***

حمد الله طويلًا حين أخبره الطبيب أن الأمر لا يزال محصورًا في منطقته، وأنه لم يتمرد، ويتمدد ويمد أشواكه وإبره المسممة.

وحمل التحليل والتقرير المصاحب إلى مراكز تحليل الأنسجة كان يدفعه وهْم يحركه أن يتحمل التقرير نظرة أخرى، عليه أن يتأكد على كل حال .. أهو مرض غير حميد .. كما يقول التحليل ؟..

استقبلته طبيبة التحاليل الشهيرة بنصف ابتسامة، وهى تدعوه إلى المرور بعد يومين.

.. ووجبتْ الجراحة .. وحان أوان البتْر.

واجهه الجراح في حيدة كاملة، أرجعها إلى العادة ..

الوجه أبيض مكتنز، والرأس محاطة بشعر كثيف، لا يخفى عن العين اهتمامه بترجيله، يجذبك بسمة تضيء عينيه وتُبدي ألقًا في ثغره .. أيجد وقتًا يهتم فيه بنفسه ؟ ..

رنا الطبيب إليه .. كان حائرًا، باهت اللون، يمشي القلق على وجهه ويسيل من عينيه.

شد جذعه ولف بمقعده الدوار ونهض، وضع رأسه بين كفيه، تحسس الرقبة، وجس الجلد، وراحت أصابعه تتوقف على الجانب الاخر، دعك العروق، وتحت الإبط وتنهَّد

– يرافقك أحد ؟

منْذا الذي يجعله يمضي في مسار آلامه بمفرده ؟

ألا يزال اليتم يحركه في هذه السن ؟ وهل انتهى إلى وحدة تسجنه ؟ عودته الأيام أن يكتفي بنفسه، وأن يقلل من رغباته .. وألَّا يطلب المعونة – متى استطاع – من أقرب الناس إليه.

– بمفردي
– لك أسرة
– أجنبهم لحظة الألم

فرد ذراعيه وجلس

كان رنوُّه يختلط بالإشفاق، وإثارة الحماس ..

أفلت شفتيه غصْبًا وقال في تحفظ

– ثمة احتمالات طيبة

ارتجف قلبه راعشًا حتى كاد يشعر به يقفز من قفصه، ويلبد في عينيه، أحمر مدَّمًا.

– الأمر يُشبه منْ يتعثر بالطريق ..

لم يزد .. ولم يركض هو وراء عبارته .. واكتفى بنظرة ذاهلة

................ وجار الطبيب على رقبته

غيرتْه جرعات اليود، وجلسات الأشعة .. حتى نحل الجسد وسقط الشعر وبرزت ظلوع الصدر وتجاويف الملبس.

واليد الرحيمة التي تسعفه كلما ضاقت به الدنيا خففت عنه، ومدتْ له غصْنًا أخضر مليئًا بالزهور على هيئة قلوب وأجنحة، وعيون خضراء تضيء له ليلة، وتفك قلبه ..

وكان يرى ضحكات الأهل – حوله – فراشات تحوطه.

ما الذي في يدك أن تفعله ؟

أهى النهاية التي تخايلك بآلامها ؟

أتقوى على مواجهة مجهول موحش يمرح فيه كائن أسطوري أسود ينشب مخالبه في لحمك ؟

أتقوى أن تدرأه عنك وتوقفه ؟

والولدان الصغيران منْ يساعدهما على قنص الضوء من ظلام مُضَبّب ! أيأتيهما اليتم مبكرًا كما جاءك ؟!

ومع أنك تعلم قَدْرها لديك، ورعشات قلبك التي تواصل دعوتك إليها فتلبي، فتترك الدنيا وما حوت وتهرع إلا يدًا لا تراها تدفعك فتندفع، وظلًا وارفًا يسبقك فتتْبعه.

وتقف أمام المقصورة صامتًا وساكنًا، تبحث عن الأدعية فلا تواتيك، كيف هرب منك مخزونك من الدعء والتوسل ؟ أين آيات التوسل وأحاديث الشفاعة ومأثورات الشفاء ؟

يا قيوم بك أستغيث فأصلح شأني، ونقني من الدنس وسلّه منه وطهرني ..

.. وأمام سليلة آل البيت تقف دامعًا وراجفًا، وقلبك يقفز منك، ويطل عليك ويرتجع.

تظل واقفًا، ودمعك يفيض.

ونشيجك يرجك ويلويك حتى كدت تلتوي، وتنقصف.

.. وشعرت به يتقدم إليك .. من أين جاء ؟ لا تدري

أَوُكّل بك فاصطادك ؟ ..

مدّ يده، وبسط كفه على صدرك فشعرت بها تسوخ داخلك ..

فرد أصابعه وحركها فكأنما غصون خضراء طرية تفرش ورْدها، آنسك القرب، وغزاك هدوء مفاجئ وهو يمسك بيده ويتخطى بك الواقفين،

حتى التزمك وأجلسك، وفتح المصحف وقرأ "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد".

وكنتَ ترقب المقام والمرقد والغطاء الأخضر والنقوش المذهبة والفتحات التي لاح منها نور ينسكب، يسيل ويمتد ويتهادى عبر فتحات وردية، وفوقه طيور خضراء ترفرف، وريح عطرة تفوح بعبق الورد وندى الفجر.

.. ووصل إليك ..

رحت تنظر إليه وعيناك تشرفان على الناس ..

كأنهم غافلون .. لا يشعرون بلذة القرب

أتكون أنت المقصود بهذا البهاء الذي لا يراه سواك !؟

وأنك موعود بسكينة تأخذك ..

وأنت واقف .. وذاهل .. أمام مقام سليلة آل البيت.

## قَابَ قَوْسَيْن

منْ ذكَر الإسم أمامي فلبَد في ذاكرتي ولم يفارقه ؟

الشيخة التي تعالج البدن بالروح وتلج إلى الأعماق تغسلها.

.. من أين واتتها القدرة الهائلة لأن تستبصر ما يرين على الروح من أصداف، وترسل أصحابها إلى المرضى، يلجون الفتحات ويمسون الأبدان، فتنتقض الأرواح خارجة من صدفاتها الغليظة ..

من ذكرها أمامي ؟ الشيخة صفصف !

لعلها المرأة الصالحة التي تحدثت عنها المجالس والأفراد وتناولتها بعض الأقلام ..

منْ لفظ الاسم وولى ؟ ..

أكان شخصًا محَّددًا، أو صوتًا تجسد ؟

أمكان يرمي إليّ بالخيط فأسير، أتبعه إلى منْ يرسم شكلًا أو هيئة أو رسمًا عليّ أن أكلمه، وأسعى إليه !

الشيخة صفصف !

أهو الاسم المدلل للصفاء الذي يفيض نورًا تتحاكى به المجالس !

.. نحيتُ عقلي .. فلله جنود أوْكلهم لخدمة عبيده، هم أصحاب القربى الذين يصبحون اليد التي تمس، والدواء الذي يشفي، والعين التي تفحص .. والقلب الذي يحنو.

ولّما أبديت رغبة في الذهاب إليها، صنع الصمت حاجزًا ونابت النظرات عن الرأي الصريح .. واستشعرت اعتراضًا لم يُلفظ خوفًا عليَّ من غضب ينمو، أو حزن يتشعب، وأنا الضعيف في مناعته.

قلت في نفسي: الأمر ليس جديدًا، فلماذا انتظر رأيًا في أمر أحرص أن اتفرد فيه بالرأي أو المسلك.

وذهبت إليها .. يَمَّمت وجهي إلى جزيرة بدران بشبرا ..

المرأة بيضاء في وضاءة مكتنزة، الخمار الرمادي يطوف بالرأس، ويستنيم على الكتف، ويلتفت في وداعة حول العنق ويستريح فوق الصدر .. قعدتها على الكرسي العريض تذكرني بفقيه يلقي درسًا على الأتباع أو قارئ القرآن الذي يتأهب قاعدًا فيدخل ليلوذ بكلام الله ويتلوه بعيدًا عن الهيئة المهندمة.

.. هذا الجسد الضئيل يحمل طاقة تفيض عنه وتسيل، والعين الرانية – خطفًا – تلم بالجِرم من بين جفنين يتضامان، وتقف عند موضع القلب.

.. واقتربت ..

دنوت حتى كدت أن أكون قاب قوسين ..

- رفعتْ الرأس ورنتْ.

ليس فيها ما يختلف عن الصالحات، لكنها شحيحة الكلام فيَّاضة الرنُوّ.

أشارت فكشفتُ عن رقبتي، مست ببطن الكف أثر الجراحة التي جارت على الرقبة حتى كادت تنصّفُها، شاع في العصب تنميل يرعش الحس، ويسري في قنوات كالشعيرات .. ورمقتني وأمعنت.

انفرجت شفتان حمراوان رفيعتان محوطتان ببدايات لتجعَّد جلدي ينمو رهيفًا حول الفم وتحت الخد.

- انتظرنا بعد شهر.

ورحت استعيد أمرها ذاهلًا وحائرًا. وارتقبت

- نحن نحضر فجرًا ..

أدارت وجهها تجاه شباكها الموارب، المطرز بغصن تتدلى منه أوراق لامعة ووردات آفلة، لا ترسل عطرًا ولا تداعب أنفًا.

.. حين ترددت في الخروج وأنا أراود النفس عن مقابل الخدمة أحكمت خمارها وراحتْ يدها تناقل حبَّات المسبحة في ابتهال، وتردّد كلمات الحمد مغموسة بزفرات صاهدة .. طويلة.

ولما طالت مراودتي قالت:

- امض مشفوعًا برحمة الله.

تسحبتُ مرتبكًا حتى كدت اصطدم بالجدار .. واعتدلت، وخرجت، أمام البدينة التي قيدت اسمي، وحالتي المرضية .. وقفت انتظر لعلها تطالبني بإكرامية بديلًا عن قيمة اللقاء.

فتحتْ الدفتر على صفحة بيضاء لم يمسها خط، أو تتوسطها دائرة.

.. وسجلت موعدًا الزيارة الفجرية وودعتني بابتسامة.

يا إله الرحمة .. أترسل الشيخة أصحابها مجانًا ؟

حمدت الله، والتمست رضاه، ووقر في نفسي ميْلُ إلى التبرع إلى أحدى الجمعيات التي تقدم الخدمة إلى من يحتاجها بلا مقابل أو بأجر رمزي.

.. ومنيت نفسي بالزيارة .. ورحت انتظر.

مهدت النفس لاستقبال ندى الفجر فاغتسلت، وتطيبت، ولبست الأبيض .. فتحت الصدر كي يتلقى نسمة الفجر الرطبة، وتركت الرقبة عارية حتى لا يضل الهدف إليها، وصوبتُ عينيَّ نحو أفق السماء الرفيع الذي يتبدى وضيئًا في غطشة ضوء لم يسفر بعد .. وكنت كلما أدخل في الترقب يأخذني النوم ويلطمني في موج أحلامه .. ويرميني في سراديبه ويقذف بي إلى قُنن عالية، ويمسدُني فوق الرابية بوخزات من الحصى المدبب.

وتركتُ الأمر إلى الرضى !.

وقلت في نفسي وأنا اتهيأ ككل ليلة .. لقد سعيت، ورميت حصاتي ووضعت على الله حمولتي .. الله، الواحد، الأحد، الرحمن، الرحيم، الشافي المعافي ..

وأنا الخائف من ألَّا يأتي الرسول .. ظلْلت لا أنام إلا حين تبزغ الشمس، وكأنما أسير في البرزخ .. وأنا بين اليقظة والمنام سمعتُ حوارًا يتجلى في عتمة الغرفة سلوكًا وامضة.

- أهو النائم في اليسار ؟
- أظنه في اليمين
- ومن بجواره ؟
- لعلها امرأته
- تأكدتَ من علّته !
- العلة في الروح
- ما البدن إلا وعاء
- مدَّ يدك
- بلْ .. مدّ يدك
- أمامنا أحوال كثيرة
- والفجر دنا ..
- وتدلى ..

وتهيأ لي – وأنا كالحلم – أن ذراعًا تمتد، ويدًا تناول قطعًا من القطن يضوي شعرها المندوف كما تضوى النجوم

وارتجفت، منْ يزملني ويأخذ بيدي .. ويتطوح جسدي ويهتز الفراش ..

وهذه اللسعة التي كوت موطن الجرح .. من أين جاءت وكيف ظلت تشع ألَمًا موصولًا .. حتى أفل ؟

والطيفان ينسحبان، خفيفان كغيمتين، ينفلتان من فتحة الشباك كنسمتين، وحين ولَّيا، تركا بسمة رهيفة باتساع الفتحة.

.. في الصباح هرولتُ إلى المرأة ..

حركت رقبتي، ودققت البصر فيها .. كانت كدمة سمراء أسفل الرقبة تلسعني كلما مسستها ..

ورحت اقتنص البسمة، وأحوطها بفرح، وأخادعها حتى أودعتها قلبي.

# جوْقَة من اليمَام

اخذت الخلاء وراح يبتعد.

لم يعد يقوى على القعود بالبيت، يشعر بوحدة ثقيلة تطأ روحه وتُعتم بصره، مرضه الذي ألمّ به ترك آثاره الواضحة، نحُل الجسد، وسقط الشعر، وبرزت الضلوع ونتأ الخدان، وظلّ الجرح غائرًا ..

أخذته قدماه إلى الطريق المريوطية بالهرم، كانت أشجار الكافور بتجويفات الجذوع الغائرة تلقى ظلالًا وارفة، والمياه المحصورة بين الشاطئين كالعطن الراكد.

تذكر قريته النائية والطفل الذي يقضي يومه بطوله بين المزارع والغيطان، يقْطف النوار، ويصنع أجنحة من ورق، يتسلق الصفصاف، ويدور يلتقط حبات التوت، ويلف مع مدار الساقية ويجذب بالشصّ السمك، يصاحب الكلب وينفر من الحمار ..

ولما ابتعد ليتعلم، استقر وبهت المكان القديم.

الصبْية الصغار يخوضون في الماء الراكد، ويلهون، يتقاذفون بالحصى ويصخبون مثلما كان يفعل، هفهفات الكافور ترسل عبقها والصغار يجأرون بصراخ عالٍ تتنبه له رءوس الطير، تتطاول الرقاب وتهم بالطيران.

تنهَّد في عمق ولمّ المشهد خلْف جفنيه واتكأ على جذع شجرة عجوز.

اصطادتْ عيناه في انحناءة الطريق محلًا يبيع تماثيل فرعونية مستنسخة، تجاوره مقهى مسيَّجة بشجيرات صغيرة، وأسلاك خضراء، ونباتات مزهرة، اختار طاولة نائية وجلس.

لاحت المقاعد نظيفة، ورءوس الشباب تتقارب، وأصابعهم تتشابك وبقى الهمس عند حدود الأذن.

لكن شيئًا في المقهى أقلقه .. شيء أشعره بأنه زائد على الحاجة وأنه متزوٍ وناءٍ، ويبدو كمتلصص .. فنهض ومضى.

بدأت السماء تصفو بعد كدر، والشمس تصغر حانية، وزقزقات عصافير الفروع الملتفة تصل إلى سمعه، وثمة زرقة تهبط على ذؤابات الشجر وعند التَّماس بالأفق.

وقبض على حنين يسيل منه حتى كاد يطول ما يراه، وشعر كأنه يدور في الفلك، وأنه يذوب في المشهد، ويتصدر بهوه، وصاد نفسه مبتسمًا .. فابتسم، وانفرجت شفتاه وسحبتا جفنيه، فضاقت العين وقفز منها فرح راح يدور في المكان ..

أرسل بصره وراءه وتعجب .. من أين يأتيه الفرح ؟.

جذبته لافتة "جاردينيا" فيمَّم وجهه .. نحوها ..

جاست قدماه في ممشى مفروش بحصوات ملونة، ومسيَّج بنباتات ملتفة، وبشتلات مبثوثة في الأركان، زهرات الفل كانت تتدلى كالثريات وتعبق المكان بزخم طاغٍ، وكسا النجيل وجه الأرض، فبدا كبساط أخضر ناعم يأسر العين.

لمح المناضد مرصوصة في نظام، وشغلته المتكآت والأرائك، والفرن البلدي الذي يقدم وجبات .. ومعجنات، وانسابت إلى سمعه أنغام موسيقية من سماعات معلقة في الزوايا أو متدلية من تعريشات شجرية.

وقف عند حافة الممشى ورنا ببصره .. أخذه المنظر ببهائه، وخضرته، وهوائه الطري .. وحصواته الملونة ومدقاته الصغيرة المهندمة.

زهت روحه بالمشهد والجمال حوله ملموم في قلب "جاردينيا" والعبق يضوع في المكان، ويحار من أية جهة يهب ؟ .. لعل أمرًا باطنيًا دفعه إليه ليكون ملاذه من خندقه الضيق وسردابه المظلم.

أدار رأسه وأرسل عينيه تنهلان من الجمال، وحمد الله أن هيأ له زمانًا طيبًا – يواسيه – وسط بهاء الشجر والنغم، وأخذته التفاتة مباغتة، فرمقها.

بعيدة ومنزوية.

أسندتْ ظهرها إلى المقعد وشبطت ذراعيها على الصدر، ومدت رأسها وهوّمتْ في البعيد.

ذهول يطل من عينيها لا يلائم الوجوه الباشة من حولها .. سهوم يعتريها، ويكاد يطوقها ..

أتسمع الوشاشات ؟ .. أتأخذها اللمسات الحانية وخفقات العيون ؟ ..

.. وراقبها.

وظل يراقبها لعل يدها تمتد فتشرب الليمون، أو يهتز وجهها في لفتة، أو حركة.

سكون ذاهل لا يحركه حضور شباب أو انسياب نغمات موسيقي تسَّاقط من علٍ.

***

** وأكاد – في ركني – أشعر بها .. وحيدة، مهمومة، يكاد حزنها يرسل شفرته إليّ ..

لابد من أمر جلل يشغلها، فالمصائب يجمعن المصابينا، هكذا نغل قلبي وأخذ عيني إليها .. وارتججت، نفضني ألم داهم حرك مواجعي، ألا يكفيني ما ذرفتُ من دمع أواجه به يتكور في مآقي عينيها، أكاد أنفطر من رؤية الألم.

يا الله .. يا واهب النّعم، قوّني على أن أمنحها فرحةً أزيح بها همًّا أراه يسيل من وجهها.

وقلت أقترب، لعل قربي يدخلني في دائرة التَّماس معها، فتتغير موجتها وتتعدَّل وتضبط إرسالها.

وعندما وقفت عند حافة الطاولة .. لمحت رقرقة الدمع في عينيها .. وذهول داهم يحجبها فلم تعي أنني واقف أمامها، أترصد بعيني حالها.

***

** وقف طائران أبيضان يتناجيان على فرع أيْكة قريبة، وصله، في وقفته زقزقات منغمة، وثمة صوت ممتد يترجَّع، يقاطعه صوت حاد وقصير كأنما يحاوره، تداخل المنقاران، ثم رفت الأجنحة .. وحلَّقا.

.. متئدة في جلستها – هكذا تبدو – ذاهلة البصر، ساكنة الطرف، كأنما خلعت نفسها مما حولها.

وقف أمامها .. ظل واقفًا ولم تدرك أنه يقف

نقر بإصبعه على الطاولة، مرة، ومرتين، في الثالثة أمالت رأسها ورنتْ، بقيت على هيئتها .. صمتها، وحيّدتها، وحمرة عينيها.

جذب مقعدًا وجلس.

تمتم – في تردد – شغلني أنك لم تشربي الليمون

ظلت ساكنة، ذاهلة، لم يخترق سمعها صوته

– قلت في نفسي .. أنك في أزمة

ما الذي قاله .. فنكأ جرْحًا، ودرَّت العين دمعها، وخنف الأنف واهتز الصدر.

– ما الذي يحزنك !

التوى وجهها وشعرت بأنها واقعة تحت ضغط عصبي عنيف تكتمه، يرجُّها وينفضها.

ورآها في خفة مباغتة ترفع كفها وتستر به جانبًا من صدرها .. كانت أصابع الكف تتقلص، وبدا أنها تداري شيئًا تخشى أن يظهر.

حضر العامل، والتقط كوب الليمون الممتلئ وانتظر .. وكان في حيرة .. بادره بطلب كوبيْن من الينسون.

– رأيت دموعك فضعفت.

قدم لها المنديل فتناولته وجففت دمعها.

وغلبه الذهول وهو يرى الدمع ينهل، ولا يكف .. أو يجف.

تذكر الزمان الذي صاحبه فيه حتى أدماه، وهتف قلبه في صرخة مكتومة.

– لا تبكي حتى لا أبكي معك ..

واقترب منها، قدّم الينسون ووضعه بين أصابعها

– الأمر خطير !

غالبت حزنها وتنهدت في عمق حتى كادت تسحب روحه معها ..

– نعم

راح يحيطها بعينين دافئتين كأنما يستحثها للحديث

– هو سبب كل هذا الحزن ..

أمأت برأسها واكتفتْ.

– أستطيع المعاونة !

افترّ ثغرها عن انفراجة تشي بيأس حقيقي

أسرع قائلًا وصوته يتهدج

– أرجوك .. لا تودي للبكاء

نهضت فجأة، فنتر نفسه، خشى أن تمضي فاستمهلها، واستسمحها أن تحكي، فالأمر يبدو صعبًا حتى إذا باح به صاحبه، تخفف من عبئه.

جلستْ، ودعاها أن تحتسي الينسون لعلها تهدأ.

***

كان الينسون ينفث بخاره الزكي ويُغري بارتشافه.

وضحكت عيناه وابتهل – صامتًا – أن يعينه الله على أن يمنحها فرحًا يهدئ من روعها.

– هوّني عليك

لاح عليه تردُّد يُمسك بلسانه

– تنفرج الشدة حين تتعقد.

وبدا لها أن ألمًا يمشي على وجهه ويشد ملامحه.

– تتألم لألمي ! .. لا تحزن

وهوّمْت بعيدًا وهى تراوغ صدرها أن يعلو أو ينتقض

– إنني أحيا فيه

– الحزن !

– الألم الطويل

مدَّ يده بمنديل معطر فالتقطت دمعات تتكور

– إنه يمسك بي ولا يفْلتني

أدور في الطرقات، تائهة، هاربة،

ذاهلة .. ولا يفْلتني

– ما هو ؟

– المرض الذي أكل صدْري

واهتز بدنها، وبدتْ صغيرة، متهدمة.

.. المرض الذي أكل صدرها ..

أيكون هو الذي أدماه .. وجار عليه

– أنا وحيدة ..

– كيف وأنا معك ..

آن له أن يفتح قلبه، فالمصائب تجمع المصابينا

– لا تقولي أنه هو

** هذا الذي يلاحقني ولا يريد أن ينأئ، كأنه قدر محكم يترصدني، ألا يكفيه الألم الذي خطف قلبي وأدمى روحي، وجعلني شلْوا بين الناس، جئتُ هائمًا ألتمس سكينة مع الشجر، والزهر والنغم .. وها أنا أواجه بالذي يقبض الأرواح ويدميها.

راحت تحكي عن المرض الذي تغلغل في الصدر ولم يعد يجدي معه الاستئصال، ها هو يتغلغل ويحكم قبضته .. والنهاية مجرد وقت.

– المصائر بيد الله ..

** لم يعد لدينا ما نواجه به، الأب مشغول بامرأته وأولاده، أعباؤه ننوء بها جميعًا، ليس لأحد منا عمل ثابت، كلنا صغار، الكبار مثلي تخرجوا من التجارة المتوسطة، يلتقطون رزقهم من هنا أو هناك .. زوجة الأب تكاد تقتلعني .. أكلتُ نفسي حتى ضعفت فانسلَّ واستحكم.

– والنهاية مجرد وقت

سكنت البنت وأطرقت ..

وجد نفسه عاجزًا فصمتَ، شعر بجسده يفور كالصهد، وكانت أوراق الشجر ترف، وترسل حفيفها المنغم فيرجف البدن حتى كادت الأحشاء تتبدى، وراحت العيون تبحث عن هذا الصوت المضيء .. وقبض على يدها، وشدد قبضته.

وبرقت عيناه بوميض يرتعش ..

وراح لسانه يوصيها بالجلد ويذكرها بالموعد

– الليلة نلتقي.

***

عند عتبات البناية في ميدان الجيزة .. التقيا

حين رآها عزاه القلق عليها فقبض على يدها وصعد الدرج.

طغا على وجهها الباهت خجل مصحوب بالوجَل.

كان طبيبه الذي يعالجه يسأل .. ويلمس بأصابعه مكامن الألم فوق الصدر، وتحت الثدي، وفي جانبي الرقبة، وتحت الإبط .. ورمقني في عتاب .. كأنما يعلق الأمر في رقبتي

وكان – في نظره المحدقة – صارمًا.

– دعنا نصارع الزمن .. وادع الله ..

لاذ بصمت مريب وعيناه ترقبان البنت ..

وداهمه الطبيب في نبرة حادة وهو يتوجه إليها بالحديث

– لا ترهقي نفسك .. ولا تهملي العلاج.

وكتب لها علاجًا جديدًا.

وتجرعتْ الدواء في صبْر حقيقي، ولم يكُفّ لحظة عن مؤازرتها.

***

في مشوار علاجها هالها الحزن الذي يكمنخلف عيونه .. أرادت أن تسأل لكنها خشيت أن تتكأ الجراح، فاكتفت بما يفيضه قلبه من رحمة حتى كادت تنخدع فتبتسم للدنيا وتحضن بهاءها.

.. استشعرتْ أن تجربة مؤلمة طالته، وأن خفقة الضوء في عينيه تكشفه.

تمنتْ لو احتضنته في صدرها وأدخلته وأحكمتْ الرتاج .. وجارتْ جرعات الكيماوي المشع على حيوية الوجه والبدن، وكشف الوهن عن نفسه حتى كادت تنقصف.

***

كان يصارع الزمان ..

نسى نفسه وأهله وعمله ..

انشغل بها قبل أن يتفجر البدن بالدم، ويصاب هو بمس كهربي يأخذ روحه.

وانتفض وهى تتكئ على ساعده، عليه أن يستنفر داخلها وعليها أن تحرر النور الذي حبسته في قلبها لحياة تناديها.

ووجد نفسه يردد في زعقة مباغتة .. نحن لم نعش حياتنا .. وأخذه الخجل فقبض على يدها .. وتمتم.

– الرحلة مليئة بالتعاسة والوهن.

وشملته فورة مباغتة.

وتصوّر نفسه جوادًا .. يجمح بالزمن ..

ومرشدًا يضع برنامجًا يعيد إليها شوقها للدنيا.

***

عرفتْ الطريق إلى المتحف في وسط البلد ..

جاستْ في الردهات، واستندت إلى التاريخ، تجرعت موجه ونشقت عبقة .. وظلت مذهولة زمانًا أمام الفتى الصغير في بهائه .. وجماله.

تُراوح النظر بيني وبين "توت"، تحدق ثم تبتسم، وتهمس.

– عيناه عيناك، أنفه أنفك، صفحة الخد صفحتك، حتى السكون الذي يلفه يشع منك، لم يبق إلا أن تزجج حاجبيْك .. آخذها من يديها .. ألفّ بها، وأصعد ..

نجوس في السراديب ونتكئ على أعمدة مطرزة بالذهب ومطليَّة برموز التاريخ .. وهى تشهق في وهن .. الولد سحب روحي مني .. وتُمعن النظر في عيني، أدرك مقصدها وأبتسم.

أحس بدفء حقيقي يخرج من قلبي ليصب في شراييني، كأنه ينهمر فيطرد مني برودةً ظلتْ تتمدَّد في أوردتي سنين عددًا ..

.. وأقتربَ مني الكون حين اقتربتُ منها ..

توحدتُ فيه حين توحدتُ معها ..

ووجدتُني أجوس في أروقة مخملية، وجوقة من طيور خضراء ترفرف في زفيف كغناء الفجر .. وبدتْ في لهفتها تحوّم وتصدح .. كأنما تزفنا وتدفعنا إلى خميلة معطرة ..

.. ودبتْ فوق ثرى القلعة ..

وغرفتْ من جلال مسجد السلطان حسن.

صلتْ في مقصورة سليلة آل البيت ..

تحممت بمائها، ومسدت صدرها بطهرها ..

.. ومخربَها القارب صوب القناطر ..

وراحت تتعرف على الليل في هزيعه الأخير ..

جمعت نجومه وخبأتها في صدرها ..

وترصَّدت بزوغ الشمس ..

صادت حمرتها فأشعلتْ خدها، وخضبت شفتيها ..

وأنا ألف معها وألهث .. أخوض وأنْهل ..

فلعل الزمان يطيب لي فيطيب لها ..

التقينا كي نكمل .. ومع الوهن قطفنا من أيامنا وردًا بكل لون، وعرفتْ السعادة طريقها – وهى تنسل حثيثًا – إلى عظام القفص الناتئ، وغور العين.

وزهت بها الرأس التي محلت وسقط شعرها، وأخفى المنديل والكاب قحلها.

.. ورحتُ أردد خفية وأنا أكتم فرحتي

أيمكن أن تتخذ – البنت – من الوهن فراشًا ..

ومن الألم قمرًا يضيء ليلها !

***

لم يبخل عليها بجهد أو مال، أو رحمة، أو حب.

وكان تستنفر إرادتها كي تتطاول إليه وتحيا معه اللحظة التي أرادها لها ..

.. حين جلس معها على المقعد في حديقة تطل على النيل تداخلتْ في حضنه حتى اقتربت من القلب، وراحتْ تعد نبضاته وتحسب مرات الدفء والفورة.

تنبه للطيور التي راحت ترفرف، وتصدر أصواتها في معزوفة واحدة وتقترب منها، وتهف عليها حتى كادت الأجنحة طولها.

.. وجلتْ وفرحت، .. شهقتْ ومالت

– إنهم يحتفلون بك

– أو يودعونني

وانتفضتْ ..

جذبتْه إلى الشاطئ واحتضنتْه في قوة ..

من أين واتتها القوة المرتجفة !

والرجفة التي شملتها أعجزتها عن الوقوف فالتزمها في قوة حانية، وقعد بها على عشْب الشاطئ ..

وهما يتداخلان .. اختطفتْ العين قفزات فضّية تخرج من الماء، وتعود إليه .. كأسلاك من الفضة أو خيوط من لبن القمر ..

وقال في فرحة منغمة

– السمك يحتفي بك

وقالت في فهنهة فرحة

– أو يودعني

أحاطها بذراعه فاستكانت وديعة وهو يهمس

– تلك لغة الكون في المحبة

وتوادعا على لقاء ..

***

غابت عليه وأبطأت ..
وراح يسأل حتى عرف ..
.. في الليلة التي ودَّعته، جاءها البشير ..
خلصها من ألم لا يطاق أو يحتمل ..
أكانت تحجبه عنه وهى تسند إليه وتحتضنه !.
أكانت تريد الاحتفاظ بلحظة الوصل قبل الفصل !.
.. حكوا له، أنهم وهم يشيعون جسدها إلى المقبرة، أن جوقةً من اليمام والعصافير ..
كانتْ تطير فوقها .. وترسل صوتها .. صوتًا يحاكي أصوات من يزفون عروسًا ليلة زفافها ..

## نور كالزّبد

اقتحمتْ الغرفة التي ينام فيها منفردًا ..

***

كان قد أخذ همومه معه، لَّمها وسترها بالمفرش المطرز بورْدات محمَّرة في الأطراف والحواشي ومصفرَّة وكابية في القلب.

.. طاش أيامًا يداوم على زيارتها، والحديث معها، ويعدها بأنه سيلحق بها، يؤنسها، ويؤانسها .. وبعد أن يفرغ يضع إكليله الوردي فوق المتْن الحجري الذي يهتز ليّنًا حين يتلامس مع الزهر المتفتح وأوراقه الرانية.

يترك إكليله ويصطحب الرائحة ..

تظل تزاحمه، وتراوحه، وتشد – في رهافة – ملامح الوجه الذي ولَّى وتدسه في عينيه، فيغمض جفنيه على الوجه الذي نأى ويروح يناوشه .. جاءته لحظة الوداع داهمة ..

كان الكلأ الملتف تفوح منه رائحة البلولة، وزخات المياه تصنع دوائر من الرذاذ المنثور فتبوح الأرض بنكهتها .. والمنشور الضوئي يصنع وجهها، ويرسم العين والأنف والفم والجيد الأملس ..

ومدت يدها تقطفه، تسله من بين فلك الماء ..

وضجت بالفرحة.

في بسمة لم ير مثلها كانت الروح تتجلى فوق انفراجه الشفتين.

وانعقد على الثنايا البيض ضوء كنور الفجر وهو ينسلخ من "إدام الليل"، فاض النور، وخاف أن يلحظ الناس فيعكروا بظلمتهم خلوة الروح ففتح فمه وابتسم فانسرب النور داخله.

وهو يودعها كتم نفسه وحبس النور ..

أين كان يكمن الوداع حتى يفاجئه على غرِة ؟

وداع لم يتوقعه .. فانكفأ، وظل حابسًا له، يأخذه معه يؤنسه في نومه المنفرد.

ما الذي جعلها تمرق مولّية كالسهم وهى التي بدت تتماثل عافيتها وتنبئ بحياة موصولة.

كان يضحك لها، يلم وجهها بين كفيه .. ويحدق

– منْ يراك لا يصدق أنك مريضة

– وأنت ألا تصدق

ويطوح بيده، يفرد كفّه ويستل عشبًا مزهرًا .. ويضعه في عروة قميصها المشجَّر ..

– آن أن تفردي جناحيك

– إلى أين ؟ ..

ويفرد الذراعين .. يهتز الصدر عريضًا، وتتأرجح رقبته الرفيعة .. ويأخذ نفسًا عميقًا .. تدرب عليه ..

– إلى الحضن الدافئ

وفي بسمة مخملية رائقة لها رائحة العشب والتفافه .. تقول ..

– حضن منْ !

وتغيم عيناه رضًا

– الذي يحبك ..

.. نهضت هائمة، وفردت ذراعيها، وعبت الهواء في صدرها فتحت فمها فانسرب داخلها نسيم يتألق بالعطر، وينطوي بالنور.

وطوحت بوشاحها الشفيف، فبدت رأسها ماحلة، سقط شعرها، وكأنما أدركت فأحكمت الوشاح وسترت الرأس.

.. راحت تخطو على أطراف أصابعها في خطوات موقعة، كراقصة بالية مبتدئة ..

منْ هدى الجسد الموجع إلى إيقاع الحركة المنضبط !؟

أعجبه توقيع الجسد على ساحة العشب، وأسرة الوهج الذي يطل من عينيها، ورشفات الهواء الذي يسمع صوتها يتردد بين شفتيها

.. وخشى أن تصاب بسوء .. جارت على نفسها .. وأجهدت روحها .. أكانت ترضيني ؟!

وتألقت كيمامة ..

ترف، وتحلق، تحوّم وتخدع .. ويخبط مارقة ..

حتى إذا حطت على أيكتها مدّ يده، ولمَّها في صدره واحتضنها.

أودعها قفصه .. فراحت تنسج أوردتها وتزرعها حتى بات لا ينام إلا على طيفها الذي يختلط بدمه.

كان يتداخل معها، وهو ينام منفردًا في حجرته النائية .. خشية أن تفلت منه.

وكان يقبض عليها بجفونه ويتدثر بها.

وكان يطوف بأيكها ويتنسم أكاليلها ..

.. والنوم الذي كان يأتيه عصيًا، بات سلسًا .. هادئًا كأنما يأخذه إلى التخوم البعيدة كزورق ينساب فوق بحيرة من المسك الخالص ..

.. كان يستغرقه النوم حتى لا يدري ما حوله أو يستجيب لنداء ..

***

رفعت رأسها وهى تزوم.

اتجهت إلى النافذة، وأزاحت الستارة الرمادية، مهلهلة الحواف.

غمر الحجرة ضوء شحيح فتراقصت ضبابات مفاجئة.

.. رمقته ساكنًا، فاغتاظت.

رفعت صوتها وهى تسوي أطراف الفراش المتهدل.

- أصح .. الساعة ثمانية

مدت يدها وعلقت سروالًا مرميًا على المشجب خلف الباب.

- أصح .. الأكل على السُّفرة

أطلت في مرآة جانبية وتكدرتْ، وسهمت عيناها ..

.. الوجه وجهها ..

حال اللون وبات قاتمًا ..

وحدقت في غلّ حقيقي كأنما لم تر الوجه من زمن ..

.. أين نور العين .. وحمرة الخدين، ورفة الرمشين ..

وعلا صوتها .. في غضب.

- عجّزْتُوني قبل الأوان

.. أصح ..

والسكون قائم لا يريم ..

ليس ثمة حركة .. لم ينقلب في فراشة، أو يصدر صوتًا أو يبدي امتعاضًا لصوتها الصارخ ..

.. كان هادئًا ..

يكاد يميتها .. حين يهمل الرد أو لا يعقّب على حديثها ..

يطول الصمت، وتنوب العين أحيانًا عن الكلام ..

.. ويحمل همَّه معه .. ويتكئ على مضجعه ويتداخل مع يمامته ..

وكشف المرض عن طبائع النفوس فأحس بالنبذ والإهمال ..

داهمها الغيظ وهى تغلق أدراج مكتبه .. فرفعت صوتها مؤنبة

– أنت لا ترحم نفسك

وقَمطْت منديلها وشدتْ طوق صدرها

– تظل الليل ساهرًا "كقرد قطع"

وَلوتْ رأسها، وكزت على أسنانها

– لم يهدّك المرض.

كان يعرف أن قلبها تحول .. منذ أن دهمه المرض وطال ..

وشعر بشرخ راح يتسع فانفرد بحجرته ..

وأيقن ألَّا عودة منذ قالت له

– كُفّ عن ادعاء الألم ...

** راحت تزوم وهى تفتح الدولاب وتغلقه ..

تخب خارجة من الحجرة وتعود إليها .. وتصيح

– إلى متى تسْتدر العطف ؟!

مالت على الفراش، وحركت بيدها طرف الغطاء ..

دقت بقدمها أرض الغرفة فاهتزت وثار غبار مكتنز في سجادة صغيرة قديمة، هفَّت بيدها في تأفف.

– كأنك في كهف ..

.. كان غارقًا في سكينة

لم يأبه بصوتها، أو حركتها العنيفة، أو خبطة قدمها التي هزت فراشه، ولم يثره نتف الغبار الدقيقة .. وظل ساكنًا .. وطال السكون وامتد.

ضربها خوف شحيح فوقفت على رأسه.

امتعضت وانحنت، وكشفت الغطاء عنه.

** كان يحتضن الوسادة.

وكانت الوسادة مطرزة بوردات محمرة الأطراف، صفراء في الوسط .. وثمة أفرع صغيرة من الكلأ المخضر فلتت من نمنمة الوسادة ورقدتْ بجواره ..

وكان وجه مضيء يتخايل فوق وجهه الساكن .. ونور يفيض كالزبد من فمه ..

.. وضربها القلب فانحنت عليه.

هزَّته، ثم هزَّتْه

مدت كفها وضغطت بقوة كأنها تُعاقبه ..

وصرخت ..

كان لا يزال ساكنًا وديعًا .. وهادئًا

والنور الذي يفيض منه يتعالى ويخرج من النافذة

.. كان قد مات ..

# الفهرس